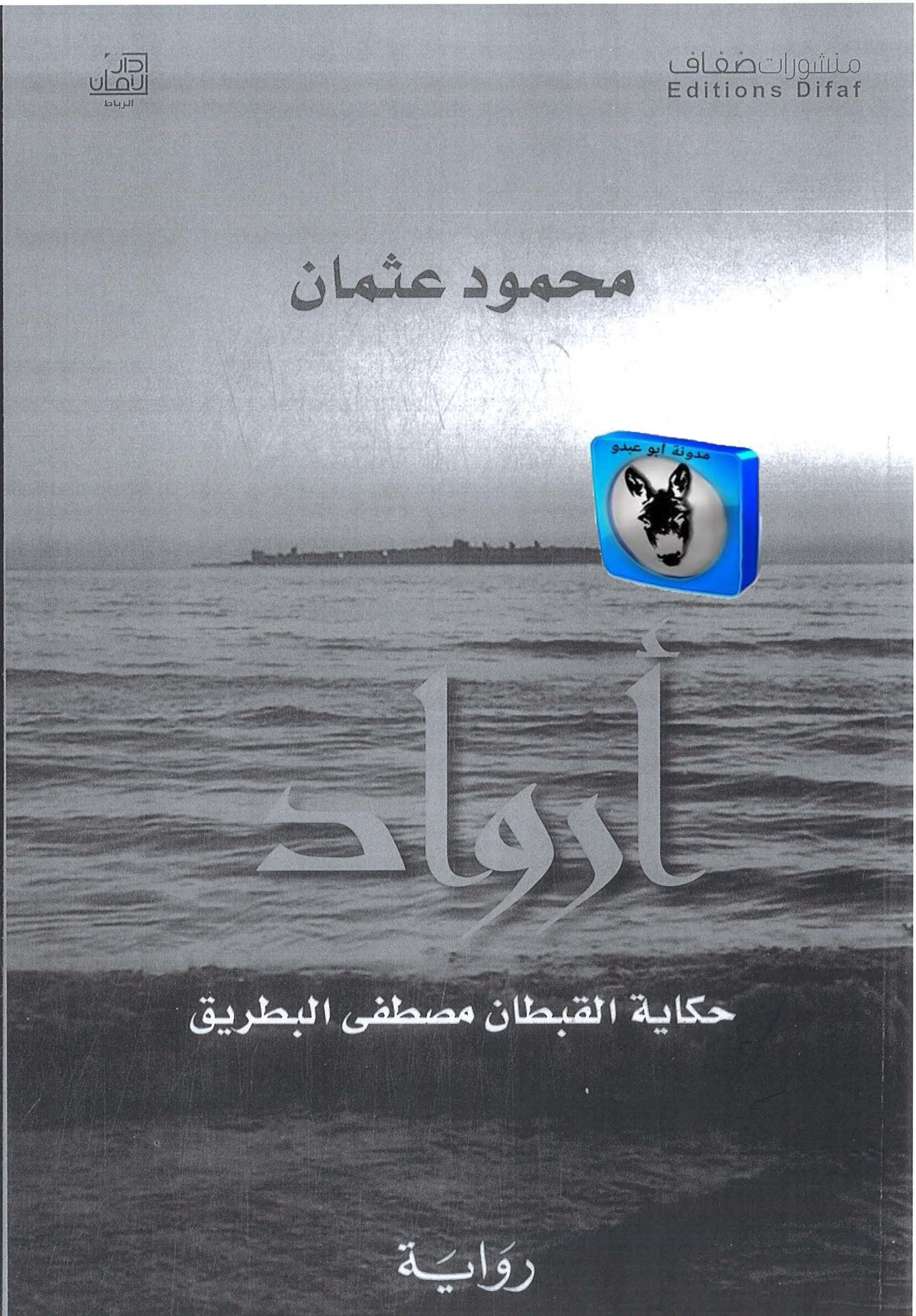


منشورات ضفاف
Editions Difaf

دار الأمان
الرباط

محمود عثمان

أرواد

حكاية القبطان مصطفى البطريق

رواية

أرواد

حكاية القبطان مصطفى البطريق

محمود عثمان

دار الأمان
الرباط

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

ردمك 978-614-02-1502-3

4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
هاتف: 537723276 212+ - فاكس: 537200055 212+
البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 9613223227+

كُشك مسقوف بالتوتَياء. يلتصق به مقهى عتيق في شارع بور سعيد. للكُشك باب حديدي أزرق. في هذا المكان يقضي مصطفى البطريق بقيَّة أيامه. في المرَّة الأولى كان الباب مغلقًا، فتابعت مسيري. ثمَّ قصدتُ الميناءَ لشراء السَّمك، وكان البابُ موصدًا أيضًا، اللون باهتٌ والشَّمسُ الضعيفةُ تُرسِل أشعَّتها على الرصيف. وقطَّة هزيلة متَّسخة تقف كالحارس الغافل عن أمره، تكاد لا تستطيع تحريك ذيلها. عيناها غائرتان كبئرٍ ناضبةٍ.

وفي الزيارة الثَّالثة وجدتُ الرَّجلَ في دكَّانه الصغير، يغسلُ حبَّاتِ البندورة الملقاة في سطلٍ من البلاستيك. فُوجئَ بي ورمقني بنظرةٍ باردة. لم يعرفني. خاطبني باسمٍ آخر. عرَّفتُه بنفسي فورًا.

لا تؤاخذني. ثَمَّة شخصٌ يشبهكَ كثيرًا. ثمَّ إنَّ الشيخوخةَ غدَّارة. تفضَّل يا أستاذ. لم يكن متحمِّسًا للحديث. ولكنِّي استفززتُه بالقول: أنتَ تاريخٌ حيٌّ ماثلٌ أمامي.

اغرورقتْ عيناه بالماضي البعيد. قال إنِّي تركتُ المدرسةَ باكرًا. ثمَّ مدَّ يَدَه وامتشقَ كرتونةً ممزَّقةً. كانت ذات يومٍ إطارًا لعلب

السَّجائر. وبدأ يقرأ عبارات مدوَّنة عليها: العلم للجاهل يزيدُ في جهله، المرأة حديقة وقد تنقلب صحراء لا ينبتُ فيها إلا الصِّبَّير... هذه عبارات استلَّها من الرُّوزنامة ودوَّنها. قلتُ إنَّ لديكَ من العبارات ما يفوقها سحرًا وبلاغة. غارقٌ في مقعده الرَّثِّ هذا الرُّجل السَّبعيني الموشَّى بالشَّيب. يتوارى في كشكٍ محشوٍّ بأشكال وأنواع من السِّلع كثيرة. لا تنسيقَ ولا ترتيب. مملكة بوهيميَّة صغيرة تختلط فيها البضائع والأجناس، وبعضها قد فقد صلاحيته للاستهلاك من زمن بعيد.

* * *

لَهُ في قريتنا بناية تدعى بناية القبطــان. الأولاد، كــلُّ الأولاد، يعرفونها. تقف شامخة في الحيِّ الشرقيِّ. تشــرف علــى البســاتين والوادي السَّحيق. وادي الحمَام. وعلى الجبل والــتِّلال والسُّــهول، وحتَّى البحر تراه من شرفاتها. بحر المينــاء الأزرق. حيــث تــنفَّس مصطفى الهواءَ الممزوج باليُود. ودَرَجَ طفلاً فقيرًا في أزقَّــة ضــيِّقة كعيون العجائز.

وإذا وقفتَ على سطح البناية، ونظرتَ جهة الغــرب، تلمــح السَّاحل السُّوريَّ منبسطًا أمامك. حيث ترتمي هنــاك مدينــة أرواد العريقة التي أتى منها هذا الرَّجل الغريب، مثل موجةٍ منذورةٍ للحلــم والمغامرة. زعم أنَّه صائم. ولكنَّ صحته جيِّــدة. وحــدها رِجلُــهُ المكسورة ملفوفة بالشاش والقطن. صدمته سيَّارة عابرة لا ســفينة. الكوليسترول تحت السَّيطرة. المسالك البوليَّة تؤدِّي وظائفها بصعوبة. صاريتُه مُعطَّلة. وطالما أبحر بها وسط أمواج النِّساء الصَّاخبات.

أمُّ فريد زوجته المصريَّة التي أحبَّها حتى الموت، هجرتْه. ولَدَتْ له أربعة أولاد: فريد وفادي وعبير ونسرين. بنتُ الكلبة لم تكن وفيَّةً

قال. أهديتُها عشرة كيلو من الذهب عياره اثنان وعشرون. جئتُ بالذَّهب من إسطنبول. ولكلٍّ واحدٍ منهم، ويقصد أولاده منها، سنسال يدٍ ذهبي. منقوش عليه اسمه. ولها طوقان لمعصمها. ابتلع ريقه وتأوَّه: المرأة تعمِّر البيت أو تدمِّره.

* * *

يجلس الرِّيِّس مصطفى بين أشيائه. هو الآن في الخامسة والسَّبعين. لم تفارقُ النَّضارةُ وجهَه ولا الذَّرابةُ لسانَه. ها هي سفينتُه ترسو أخــيرًا على اليَبَس. كشكه الصغير سفينة تحاذي الشَّــارع. مركــبٌ ملــيءٌ بالهدايا. تقوم بينه وبين الأشياء علاقة أكثر إنسانيَّة من علاقتــه بســائر البشر. ها هنا يتجاور كلُّ شيء بلطفٍ وأمان. علبة الســجائر وشَــفَر الحلاقة. الفوط الصحِّيَّة وعُلَب السَّردين. أقلام الرَّصاص والبســكويت. الأرزُّ والآيس كريم... هو ما زال قبطانًا لكنَّه لا يغادر مكانه. بل يبحر في الزَّمان باتِّجاه معاكس... إلى هناك. حيث الماضي البعيد الجميل.

أمام كرسيِّه صورتان لفتى في الرابعة عشرة. صورتان تحدِّقان في وجه بَحَّار متقاعد. عينان برَّاقتان. أنف صخريٌّ. سُحنة سمراء، يَدٌ لها نكهة الأمواج، وفمٌ يختزن أسرار البحار.

هي أشياؤه الوديعة المتجاورة. تشبه بيــوتَ الميــناء وأزقَّتــها. وزبائنه هُمُ الفقراء. القانعون بالكفاف. يستدينون السِّلعَ الرخيصــة، ذات الثَّمن البخس، يمزجون البسمة بالحرمان. وهو يدوِّن على ورقة ممزَّقة أسماءهم أو ما تذكَّر منها. إنَّه لا يبيع السِّلع، بل الأمل.

يحلفون بحياته، فهو الجارُ الطيِّب. إنَّه أشبه بمومياء فرعونيَّة حملها الموج إلى هنا.

تأتي الجارة وابنها. تحيِّيه. تحمل السِّلعة وتمضي. تكاد لا تلتفت. يأتيه الصِّبية تباعًا. يحملون أشياءهم ويمضون. هو يعــرفهم. يحفــظ أسماءهم ووجوههم. إنَّه يثق ببراءتهم.

الميناء كتلة من البشر الذين جاءوا مع الأمواج من كل حَــدَب وصوب. صيَّادون من كلِّ الأجناس والأعراق. بحَّارة لا لون لهم ولا طعم. بل مزيجٌ غريبٌ من الألوان والأطعمة. عائلاتٌ وافدةٌ وألقابٌ وأسماء. أزقَّة تؤوي الغرباء. حاراتٌ تتلاصق. بيوتٌ تتعانق كالأسماك. أناسٌ يؤمنون بالعيش لا بِدينٍ آخر. جــوامعهم عتيقــة متواضــعة. وكنائِسهُم لا تؤمن إلا بقدِّيسٍ واحدٍ هو البحر.

* * *

أبـــي من جزيرة أرواد وأمِّي من الميناء. شـــاءت الصُّـــدَف أن يخطبَها من دون أن يراها. نساء ذاك الزَّمن منقَّبات. كان كافيًـــا أن تصِفَها امرأة له. سمراء مستديرة الوجه، واسعة العينين، ممشوقة القَدِّ، سمينة السَّاقَين. عندما زفُّوها إليه على متن البابور، وسط جماعة مـــن النِّساء المتشابهات، شدَّتْ على يديه أثناء المصافحة ليعرفها. حملـــها أبـــي على متن الأمواج إلى جزيرته الصغيرة. بيوتها تشبه حفنة أرزٍّ. وأزقَّتها ضيِّقة كالعيون الصينيَّة. جزيرة عريقة عـــاد إليهـــا أبـــي السِّندباد، وفي يده هديَّة العمر.

لكنَّ أمِّي لم تلد. بالرَّغم من مرور ثلاث سنوات على زواجهـــا. قالتْ لأبـــي سرِّحني بإحسان. فعادا إلى المينـــاء الطرابلســـيَّة ليتابعـــا حياتهما. استأجر جدي لأمِّي لهما بيتًا مثل عشِّ العصفور. يا للدَّهشـــة، حبلتْ بـــي أمِّي خلال شهر. إنَّ هواء الميناء يـــثير اللقـــاح. أحسَّـــتْ بالحياة تتحرَّك داخلها. نطفةٌ أمشاج من عَرَقٍ وشمسٍ وملحٍ وماء.

سمَّتني على اسم سيِّدنا المصطفى. فاصطفاني أبـــي لأصبح بَحَّارًا مثله. كان هو قبطان شراع. أمَّا أنا فأصبحتُ قبطان سفينة.

لم يرسلني أبـــي إلى المدرسة. و لم ألبس مريـــولاً أزرق مثـــل ذاك الذي يلبسه أترابـــي. لم يصحبني إلى جامع أو كنيسة. لا في الجُمَع ولا في الآحاد. وحدها أمِّي كانت تصلِّي. تَنْتَبِذُ زاويةً مثل راهبةٍ في دير.

في الميناء، الناسُ طيِّبون. خبثهم يذوب مثل الزَّبَـــد. أنفاسُـــهم عابقة مثل النَّرجيلة. وطويلة مثلها. ترتسم الطِّيبة في الوجوه والعيون. جيراننا يدخلون بيتنا دون استئذان. ونحن نزورهم من دون موعـــد. يحملون بأيديهم إلينا ساخنَ الشَّراب، وطازجَ الطعـــام. إذا فتحـــتُ شبَّاك بيتنا أصافحهم.

بدأتُ حياتي في العمل أجيرًا. اشتغلتُ في الصَّـــيد وأنـــا دون العاشرة. صُحبة رفيقي خضر شبُّو. إذا هجم النَّوُّ نصيد الكثير مـــن الأسماك. وإذا هدأ فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم اشتغلتُ في ورشةٍ لصَبِّ الحديد. كنتُ قويَّ البُنيَة، حملـــتُ منخل الرَّمل وحدي. أنجزت الشُّغلَ بسرعةٍ مع رفـــاقي. وتعلَّمـــتُ المهنة فورًا حتَّى أنَّ معلِّمي أصبح يعتمد عليَّ أثناء غيابه.

ثمَّ تولَّيتُ إحضار "السِّرفيس" إلى المعلِّم. كلَّ صباح وجبة حمص أو فول من لدن العمِّ "أبو سعيد" في السُّوق. وكنتُ جاهزًا لإحضار الفواكه والخضراوات وغيرها من الحاجات المنزليَّة. تفاحةٌ حمراءُ من يد ربَّة المنزل مكافأتي، أو قرصة ناعمة على خدِّي الطَّريِّ.

وبالرغم من براعتي وذكائي وزنودي العريضة، كان المعلِّمـــون الكبار ينظرون إليَّ بازدراء. فأنا مجرَّد سوري وافد من تلك الزِّيـــرة البعيدة. غريبٌ مرتزقٌ ليس إلاَّ. خادم أمين لعائلات بورجوازيَّة تفخر بدمها الأزرق.

* * *

أرواد أرواد أيَّتها الأمُّ البعيدة. هذا فتاكِ يصارع الأقدار في البلد الغريب. لسانه عربيٌّ ولكنَّ جبينَه قُدَّ من صخرتك. وعيناه عالقتـــان بحصنكِ الشَّامخ. مضفورةٌ مثل جديلةِ جدَّتي بيوتكِ. كلَّلَني الشَّـــيبُ و لم أزل طفلاً يحنُّ إلى ذراعيكِ.

حياتي مهدَّمة مثل سُورِكِ. وحنيني ثقيل مثل حجارته الضَّخمة. كان الفتى السوريُّ يقف كلَّ يوم على الشاطئ ويرمق بعينيه الزَّائغتين جزيرتي النخل والأرانب. قال إنَّهما بناتُ أرواد.

وذات يومٍ، أَتَتْهُ لتشتري صبيَّة سمراء، وكنتُ قاعدًا إلى جانبـــه. سألها ما اسمكِ فانتسبتْ إلى جزيرته. فابتسم لها من قلبه والدَّم يحنُّ. أنا أروادي أيضًا. هي لم تكن سوى تلك الممرِّضة التي غرزت الإبـــرَ في ركبته اليسرى. يدها الحنون عجَّلت بالشِّفاء.

الزَّهرة المقتلعة من شروشها لا تنبت في المكان الغريب. وأمِّـــي التي استهزأ بها النسوة الأرواديَّات أينعتْ في تربتها. قلنَ لها لن تحبلي وتَلِدي حتَّى يخرج الطفلُ من بطَّة ساقك. أنا معجزتها. وضعَتْني بأيدٍ وأذرعٍ وأرجلٍ ملتفَّةٍ مثل أخطبوط.

* * *

يحتَفِي القبطان باليمام وبالقطَّة الصفراء. يطعمهنَّ طحينَ الخبز اليابس. ويدعُ القطَّة تدبِّر شأنها بنفسها. حَيَّيتُه فاستقبلني كعادته فلم ينهض. ساقه ما زالت تؤلمه. كرَّر على مسمعي أنَّه يحبُّ المغامرة كالسِّندباد البحريِّ. من بحر إلى بحر ومن زيرة إلى زيرة. ثمَّ أخرج مفكِّرة فيها خرائط القارات الخمس. ووضع إصبعه على منغوليا. بين الهند والصين تقع. قال من هنا أتى الهنود الحمر. مَشَوا شمالاً إلى الصين واتَّجهوا نحو الشرق، مشيرًا بحركةٍ من يدِه.

في الشِّتاء يتجمَّد البحر. عبروا على الجليد فوصلوا إلى كندا. ووطئوا بعد ذلك أرض أمريكا. أنظر هنا يا أستاذ. إنَّها المكسيك. النَّاس يدخلون من دون فيزا. يتسلَّلون عبر الحدود إلى بلاد العم سام.

مزوَّدًا بالخرائط يقتحم ويحدِّد الموانئ التي سيرسو فيها. يسبُرُ عمق البحر بحَبْلٍ موصولٍ برصاصة. لم تكن هناك أجهزة ترصد. الحدس رادار داخلي والقلبُ بوصلة. من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأسود حينًا، وإلى البحر الأحمر حينًا آخر.

سألتُه: هل مياه البحر سوداء كما اسمه؟ ضحك من سذاجتي. لا... مياهه عكرة مثل بحرنا في الشِّتاء. أُصبتُ بخيبةٍ صغيرة. كنتُ في طفولتي أتخيَّل أنَّ بحارَ العالم ملوَّنةٌ حسب أسمائها. كنتُ أرسمها على الورق وألوِّنها بالأحمر والأبيض والأسود والأصفر. عدتُ إلى البيت وضغطتُ بإصبعي الزرَّ الرقميَّ. واكتشفتُ السرَّ. فالبحر الأبيض يتوسَّط القارات الثلاث، والأحمر أخذ اسمه من شُعَبه المرجانيَّة وطحالبه الحمراء. والأسود مياهه داكنة لأنَّ السُّحب تحجب عنه أشعة الشمس. ومع ذلك، فإنَّ بحارَ العالم تظل في عيني زرقاء. أبدًا زرقاء.

* * *

التقينا بعد أسبوع. دعاني القبطان إلى تناول الشَّاي الأخضر الممزوج بالقرفة في مقهى صغير على الشَّاطئ. جلس قربي في سيَّارتي. فتحولتُ إلى سائق خاص. كنتُ مستمتعًا كما لو أنِّي بجانب امرأة جميلة. عندما وصلنا قال لي هذا المكان يُسمَّى "فوق الريح". يأتون بالمراكب إلى هنا عندما تهبُّ الرِّياح الشرقيَّة، كي لا تتكسَّر أجنحتُها.

جلسنا متقابلين على طاولة خشبيَّة صغيرة. شعرتُ بأنِّي أحلِّق فوق الرِّيح. وبأنِّي أخفُّ من عصفور. ها إنِّي أسمع هدير البحار يخرج من شفتيٍّ بَحَّار فينيقيٍّ. لم تَزِدْه السِّنين إلاَّ عشقًا للحياة. ففي شفَتَيه عطشٌ وحكاياتٌ مالحة.

قال هل تعلم يا أستاذ أنِّي نشأتُ يتيمًا. إنَّ أبي لم يمت وأنا صغير. ولكنَّه كان عنِّي مشغولاً. فقام جدِّي برعايتي والحنوِّ عليَّ.

لم أكن أطيق نظرات الشَّفقة الممزوجة بالازدراء تنهمر عليَّ من الرِّيس بَدَوي. تعرَّضتُ لكلِّ أنواع الأذى. هل تفهم يا أستاذ معنى أن يركلك ربُّ العمل في مؤخرتك؟ يا للعار. أن يلوطك أحد شذَّاذ

هذه المدينة هو أهون عليك من ذلك. ولا أخفي عليك أنَّ هذه المدينة سَدومٌ صغيرة. ولو أراد الرَّبُّ أن يضع عقله بأهلها، لجعلَ عاليها سافلها، ولحوَّل رجالها إلى أعمدة ملح.

هل تفهم يا أستاذ معنى أن تأتي بالقهوة إلى أحدهم، حيث تقوم بخدمة الجميع: ربُّ العمل وأصحابه وزوجته وأولاده وحتَّى جيرانه فينفحك بعشر ليرات جزاءً على فعلتك، تمامًا كما يرشُّ السُّكارى الأموال على راقصة الليل. ثمَّ تعود إلى أمِّك مسرورًا بهذه الصَّدَقة، فتنهال عليكِّ ضربًا وتتَّهمك بالسَّرقة. ولن ينقذك من سوطها إلا صوت جارك الخواجا يعقوب مناديًا: دعيه يا أمَّ مصطفى، أنا أعطيتُه المال. ابنك صبيٌّ شهم وليس بسارق.

هل تفهم معنى أن تنظر في عينَي أمِّك فترى الحنان الممزوج بالغضب، والعطفَ المجبول بالقهر؟

هل تعرف معنى أن لا ترى أباك إلا لمامًا. لقد أخذه البحرُ منك والخمر والفقر. ومع ذلك، أقول لك بكلِّ صدق، إنَّه كان طيِّبًا.

كان الرُّضابُ يسيل من فم العجوز وهو يتكلَّم. فالكلام يخرج من دون أن يلوكه. لم يعُدْ لديه أسنان لمضغ الكلام أو مضغ الطعام. وأردف قائلاً: حين اصطحبني المعلِّم إلى بيته، عرَّفني بامرأته. هذا هو البطريق وأشار إليَّ. فركضَتْ نحوي وعانقَتْني. حماكَ الله. ظننتُكَ رجلاً بشواربَ مفتولة. فقد حدَّثني زوجي عن بطولاتك في نخل الرَّمل وصبِّ الحديد. فضلاً عن براعتكَ في الصَّيد. تعالَ حبيبي. وقبَّلتني على جبيني قبلةً بريئةً، ولكنِّي شعرتُ بأنِّي أخسر شيئًا أعزَّ من المال عليَّ. أجل يا أستاذ، خسرتُ شيئًا من براءتي.

أدركتُ من نظرتها المثبَّتة على وجهي، أنَّها وقعتْ في حبِّي. أنا شابٌّ في السَّادسة عشرة، وهي امرأة في الثَّلاثين. سبق واكتشفتُ العادة السِّريَّة. ولا يخفى على أحد، أنَّني أبدو أكبر من عمري الحقيقي. وحين أتيتُها محمَّلاً بأكياس الخضار والخبز النَّاعم، رحَّبتْ بي بلطفٍ آسرٍ وفتحتْ لي ذراعيها وعانقتني. فاخترقَ عطرُها أزقَّة جسدي وشراييني.

كانت ترتدي ثوبًا أبيض يشفُّ عن نهدين من ياسمين. أنا الولد الشقيُّ النَّحيل. كانت أمِّي تمازحني وتقول: لم تتركْ يا بُنيَّ للدُّود شيئًا. أنا الفتى الذي لم تلامسه امرأة قطُّ. ها أنا أستسلم لها راضيًا. جسدي مركب صغير، وشراعي ينتفخ. الطقس هادئ والريح مؤاتية. أقلعْ أيها البَحَّار الغَرير. دعِ المركب يرسو أوَّلاً على جزيرة الأرانب وخذِ استراحةً عند جزر النَّخل ثم ادخلْ برفقٍ إلى خليجها الذي لا يشبه الخلجان.

هكذا أصبحتُ يا أستاذ، رجلَها وعشيقَها. أنا الأمير الصغير الذي روَّض الثَّعلب. أنا القبطانُ الذي سافر في بحر النِّساء، من ميناء إلى ميناء، وعاد إلى مكانه الأوَّل، فارغ اليدين والعينين.

دلَّلتْني، رفَّهتْني، أعدَّتْ لي أجملَ الموائد. أطعمَتْني أشهى الأسماك وسقتَنْي ألذَّ الخمور. أخذتَنْي معها إلى القدس، رأيتُ حائط البُراق وكنيسة القيامة. وضعتْ تحتي سيَّارة فارهة تتكسَّر لها أعناق النَّاس.

أجل يا صديقي، فقدتُ عذريَّتي قبل الثَّامنة عشرة. ولكنِّي ربحتُ أشياءَ كثيرة. الرُّجولة والرَّفاهية واللذة والمال. هذه هي الحياة لا تمنحك شيئًا إلا لتسلبَ منك شيئًا آخر.

أنا الآن عجوز أحمق. سلبَتْني الحياةُ القوَّةَ والشَّبابَ والنضارةَ والشَّيءَ المنتصب الذي تداعبه النِّساء. ولكنِّي ربحْتُ بالمقابل القناعةَ ورضابَ الحكمة. وربحْتُ السَّكينةَ وراحةَ البال. إلى جانب القطَّة الصفراء واليمام والثِّياب المتَّسخة.

قلتُ لا تنسَ أنَّكَ قد ربحتَ أيضًا صديقًا جديدًا. لديه من الوقت ما يكفي لسماع ترَّهاتك. فما كان منه إلاَّ أن انتفض غاضبًا وبصقَ في الأرض وقال: للشَّيبِ وقارٌ لا يدركُه أمثالك.

وبعد أن هدأ روعه، تلفَّتَ إليَّ مبتسمًا، وقال: عذرًا إنَّها زلَّة لسان. لا تؤاخذني. تفووه عليك يا شيطان.

لا بأس يا عزيزي. ليكنِ الله في عون الشَّيطان. هو مستعدٌّ دائمًا لحمل أوزارنا. كتفاه عريضتان مثلك. إنَّه توأمك، بل أنت هو في حالة الغضب.

أحسَّ بأنِّي أسخر، فقال مندهشًا:

- ألا تؤمن بوجود الشَّيطان يا أستاذ؟
- بلى بلى. تمامًا كما أؤمن بوجود الإله. وهل تعرفه أنت أيُّها القبطان؟
- في طفولتي كنتُ شغوفًا بالأكاذيب البيضاء. إذ تحذِّرني أمِّي قائلةً: لا تكذبْ يخنقْك الشَّيطان. لا تسرقْ يخنقْك الله.

وعندما تضعُ مائدة الطعام أمامي أسبقها إلى تناوله. فتزجرني موبِّخةً: قُلْ باسمِ الله وكُلْ. اِرفعْ صوتكَ لتسمعَكَ الشَّياطينُ الصُّمُّ. وإلاّ فإنَّها تأكل معنا وتسرق قُوتَنا وغلالنا. ثمَّ إنِّي كنتُ أتخيَّل الشيطانَ قردًا أو قطًا بقرونٍ طويلةٍ وذيلٍ نحيل وعينينِ تقدحان شررًا.

- أيُّها القبطان. أنتَ الشَّيطان. والشَّيطان هو أنت. هو قواك اللاواعية التي تفورُ في عروقك. هو جوعــكَ إلى الطَّعــام والشَّراب. هو عطشكَ الأرعنُ إلى النِّساء. هو تعطُّشُكَ إلى سفك الدِّماء. هو لذَّتك في الشَّتائم. وفضولكَ في التَّلصص على جارتك وهي تنزع قميص النَّوم عنها...

ضحكَ القبطان وخرج البصاقُ من فمه. ونادى على النَّــادل بأعلى صوته: أدركني بكأسٍ من الخمر قبلِ أن يأتي عليها الشَّــيطان. وبكوبٍ آخر من الشَّاي. إنَّ الأستاذ هو من سيقود السَّيَّارة لا أنــا. وقهقه وحده.

* * *

سرقَتْ زوجة المعلِّم، كما يسمِّيه هو، شبابَه. أكلَتْ عشر سنوات من عمره. كان متفرِّغًا لها ليلاً ونهارًا. يضاجعها سبع مرات في اليوم. ولو لم تكن عاقرًا لملأتْ بيتها بالأولاد. كان زوجها يعود مخمورًا إلى البيت. هو بدوره يتصبَّب على الفتيات. يزني ويسكر. ويتراخى أمام امرأته التي كانت تقفل الباب بهدوء وتلتهم الشَّاب الجميل دون خوفٍ ولا وجل.

وانتشر خبرها في المدينة. النِّسوة تثرثرن. امرأة المعلِّم تراود فتاها عن نفسه. بل تعاشره معاشرة الأزواج. وقحة. قذرة. خنزيرة شبقة. لا ترتوي ولا تشبع. لقد بهدَلتْ سمعتها وسمعة العائلة النَّبيلة التي تنتسب إليها. والذَّنب ذنبها. وما شأن ذاك الفتى المسكين الذي استغلَّت قوَّته وفقره وبراءته. وهكذا أصبح البطريقُ يوسُفَها. وقد همَّتْ به وهمَّ بها ولكنَّه لم يرَ برهان ربِّه. بل رأى بياض نهديها المشعَّين أمامه. وخصرها المتلوِّي في غلالة الحرير مثل سمكةٍ بيضاء تُؤكلُ نيئةً بلَحْمِها وحَسَكها. وأحسَّ برجولته تتفتَّح في أحضانها. واكتشفَ مباهج الجسد الذي لا ينضب.

ها هي الينابيعُ تهدرُ في ظهره، والمياه تتــدفَّق تحــت عمــوده الفقريِّ. وراح يسقي سهولَ امرأة العزيز ومرتفعاتهــا المتعطِّشــة إلى الحبِّ. فازدادتْ نضارةً وبهجةً. وأصبحَتْ تطير كالحمامة من ماءٍ إلى ماءٍ. وراحتِ الشِّرِّيرة تفاخر بفَحْلها هذا. بل أصــبحتْ تُهديــه إلى صديقاتها المفضَّلات. فتحوَّل إلى تيسٍ مستعارٍ. يعتلي الحائلة ويرويها بإشارةٍ خفيَّة من سيِّدته.

ولم تتورَّع الخيَّاطة عن مراودتِهِ فَنَزَا عليها. وكانــتِ السَّــيِّدة سعاد من أشهر خيَّاطات المدينة في ذاك الزَّمن. يؤمُّ بيتَها نساءُ الطبقة الثَّريَّة والنوَّاب والوزراء. قالت له هذه العاهرة البارعــة في حياكــة القماش ونسج العلاقات ما طالني رئيس ولا وزير. ما صحَّ لــك لا يصحُّ لغيرك. فحنى رأسَه متظاهرًا بتصديقها. وهو يعلم أنَّ الكــذب بعضٌ من حُليِّ المرأة اللعوب.

* * *

هذا الصَّباح لم أذهبْ إلى القرية. أمِّي زارَتْني البارحة. فتزوَّدتُ منها حاجتي إلى الرِّضى. يمَّمتُ وجهي شطرَ الموج والأفق. ومشيتُ راجلاً نحو البحر. دخلتُ سوق المينا العتيق. وهو يعجُّ بالناس والبضائع. سُوق مرصوف وساحة تفضي إليها الأزقَّة من جميع الجهات. أزقَّة نظيفة. بيوتها كالمغاور. إذا فتح أحدهم البابَ وجدَ نفسَه في الزُّقاق. البيت والزُّقاق شيء واحد. والسَّاحة حديقة وملعب. باعةُ الكنافة والهيطليَّة إلى جانب باعة السَّمك والخضراوات. المحلاَّت والباعة المتجوِّلون والنَّاس المسالمون. تحسُّ بأنَّ النَّاس هنا يعيشون. وتحسبُ أنَّ ساكني القصور والشُّقق الفخمة والشَّوارع العريضة لا يفقهون فنَّ العيش.

تتمنَّى لو كنتَ واحدًا من هؤلاء المساكين الطِّيبين. الذين لا يفرِّقُهم انتماء ولا يشغل بالهم ما يدور من حولهم من حروب ومؤامرات ومذابح على الهويَّة. أناس يعيشون في يومهم فقط. الماضي لا يعنيهم والغد لا يقلقهم. تتمنَّى لو كنتَ صيَّادًا واقفًا على صخرة والموج يلثم قدميك. وجسدك العاري يحترق تحت الشَّمس. ويتبلَّل

بأنسام الشَّواطئ. تحلمُ بأن تغطسَ في الماء وتتملَّح حتى لا تــتعفَّنَ أو تصدأ. تولد ثانيةً من زبد البحر سلحفاةً تهزأ بالكون. تعود وثنيًا كما كنتَ. بدائيًا كما كنتَ. خلطةَ عشقٍ وطحالب.

وتابعتُ سيري في الأسواق، رأيتُ أطفالاً يلعبون ونساءً تطــلُّ على الشُّرفات. وأصحابَ حِرَف عاكفين في كهــوفهم. ورأيــتُ المقاهي العامرة بالفقراء. يلعبون الورق ويمدُّون أعنــاقهم بالنَّراجيــل ويحتسون القهوة والشَّاي. ويتناولون صحنهم اليــوميَّ في المقهــى ويدخِّنون ويتشاجرون. يتكلَّمون بألسنةٍ عديدة. فالمقهى في الميــاء سُوق صغير.

ثم اتَّجهتُ شمالاً إلى شارع بُور ســعيد. فوجــدتُ القبطــانَ ينتظرني. لقد حَدَسَ بقدومي. إنَّه يرتدي ثوبًا جديدًا هذا اليوم فكأنَّه أرمنيٌّ وقد عاد للتوِّ من الكنيسة. ومشينا معًا على الرَّصيف وانعطَفْنا جهةَ البحر. واتَّخذنا مقعدين لنا على الشَّاطئ الرمليِّ تحــت مظلــة السَّعف اليابس.

خيَّم الصَّمت علينا برهة طويلة. تركنا أعيننــا تحتســي الميــاه البعيدة. وراحَتْ أفكارنا تحلِّق كالنَّوارس البيضاء. إنَّها ساعة الحقيقة حيث تلفظ كلَّ شيءٍ وراءَك وتقف عاريًا بالروح.

قلتُ تكلَّمْ أيُّها الحوتُ الهرم. بدلاً من أن ترفع منخرَيــكَ إلى الأعلى وكأنَّك تريد أن تتنفَّس كلَّ ما في الفضاء من هــواء دفعــةً واحدةً.

قال إنَّ الحقيقةَ التي تبحث عنها كامنةٌ في هدير الأمواج. أصــغِ معي يا أستاذ، تسمعْ أسرارَ العالم وأحلامه. قوانين الوجود وشرائعه. بكاء البشر وضحكهم. أصغِ لتسمعَ صوتَ الله متكلمًا. انزعِ القطن

من أذنيك وافتحْ قلبك. دعِ الموجة تلمس روحك. دعِ الطحلب ينبُتْ على قدميك. دعِ الطيور تحتفلْ بقدومك. اسكرْ بهذا الدَّنِّ الواسع كما تسكرُ البحارُ بنفسها. كن واحدًا من البحَّارة الذين يبحرون ولا يَصِلون ولا يريدون العودة. أنا واحد من كائنات هذا البحر، وصخرة من صخوره، وحلزون له حق العيش. إذا لم يلامس جسدُكَ الحصى والعشبَ والرملَ ويلتصق بالصخر ويمتزج بالشَّمس والهواء، ويتنشَّق اليودَ النَّقيَّ ستظلُّ إنسانًا ناقصًا. لن تكون كائنًا حيًا. ستظلُّ كما أنت كائنًا من الحبر والورق.

أفحمني الرِّيس مصطفى. هذا الفينيقيُّ الصَّلب الذي لا ينتمي إلى مكان. سمعتُ في هدير صوته نداء بحَّارة صيدا وقرطاج وأثينا. وقرأتُ في تضاريس وجهه فلسفةَ سقراط وقصائدَ هوميروس. ورأيتُ في عينيه خيبةَ العشَّاق وهزائمَهم، وانتصاراتِ الفاتحين وأهازيجَهم.

حاجباه قوسانِ من النصر، وبطنه المنتفخ برميلٌ من النَّبيذ والحكمة. قال لي قسمًا بعاهراتِ فينيقيا الخمس: طرابلس وأرواد وصيدون وصور وجبيل سأرفع لك تقريرًا عن مغامراتي السِّندباديَّة أو ما تبقَّى في ذاكرتي من صدى الأشرعة والمجاذيف وهدير المحيطات.

* * *

لم تَدَعهُ امرأةُ معلِّمهِ يرتاح. وحين مدَّ عينيـــه إلى فتـــاةٍ ناهـــدٍ ليتزوَّجها، اشتعل قلبُها غيرةً. لن تسمحَ له بالزَّواج من أنثى أفضـــلَ منها نضارةً وشبابًا. أخذَتْ تذمُّها: عيناها صغيرتان، أنفهـــا كـــبير، قصيرة القامة... قالتْ ساخرةً: ما لكَ ولهذه الفِجْلَة؟ تكاد لا تصـــل إلى خصرك. لا يا عزيزي لن أرضى لك هذه النَّوَريَّة. سأختار لـــك زوجةً تناسبُك. ولكنَّ السيِّدة الفاضلة لا تودُّ أن يخرجَ مـــن تحـــت إبطها. ستختار له زوجةً تناسبها هي. عمياء صمَّاء بلهاء... ومـــن الأفضل أن تكون عاقرًا مثلها.

وخلال أسبوع، قدَّمَتْ له عروسَ أحلامِه. عـــانسٌ في الثَّانيـــة والثَّلاثين. تكبرُهُ باثْنَتَي عشرة سنة. هذه الصَّبيَّة تناسبُك يا صطُّوف. خيَّاطة ماهرة وبنت ناس. رزينة عاقلة تحفظكَ في غيابك. تُحســـن التَّدبير والتَّوفير. دجاجة تبيض فضَّة وقد تبيض أطفالاً.

اللعنة. هذا ذوقكِ يا سيِّدتي. وخطَّتكِ للاستئثار بـــي. ولكـــنَّ صاحبنا غفر لها مكرها. معتبرًا أنَّ الحبَّ هو الدافع الذي يقـــف وراء تصرُّفاتها.

والحقيقة هي أنَّ الحبَّ هو ما يدفعه إلى تبرير موقفها، فهـــو لا يريد الخروج من جنَّتها والتخلِّي عن عرش نهديها. فاتخـــذ زوجـــةً تسترُه. ومظلةً تَقِيه شمسَ الفضيحة المحرقة.

ولكنَّ الزوجة المحظوظة، ولدَتْ له ثلاثة: صبيًا وبنـــتين. سمَّـــى الصبيَّ على اسم جدِّه: جواد. وسمَّى الكبرى على اسم جدتهما سلوى، والصغرى هي نجوى.

* * *

ها هو الآن في الثّلاثين. وقدِ ارتوى من متع الجسد. إنَّ نداءً مجهولاً يعصف بين جنْبَيه. نداء البحر. ها هم الأسلاف يَستيقظون. يدفعونه إلى المغامرة. أيادٍ تُومئ بالمناديل. وبحّارة يرنِّمون. ومركب يمخُرُ عُبابَ المحيط. الذِّئبُ الذي عاشَ بين النِّعَاج يكتشف نفسَه. رأى وجهه في البحيرة الصَّافية بين الجبال. فعافَ الأعشابَ وجاعَتْ روحُه إلى اللحم والدم.

اشتغل، في بداية أمره، قبطانًا لسفينة شحن يملكها أبو علي البكداش. راتبه ثلاثة آلاف ليرة. اسم البابور "المهدي". للمراكب أسماء كما الأولاد. من ميناء بيروت إلى ميناء طرابلس ليبيا يشحنُ الإسمنت. تعلَّم القيادة بنفسه. كما يسبح الحصان في الماء بنفسه.

وبينا هو يمشي على الشَّاطئ، سقطتِ المفاتيح من يد الوكيل الليبيِّ في البحر. فقفز الرَّيِّس مصطفى كالجنيِّ في الماء. وانتشلَها من بين أكوام النُّفايات. له عينا صقرٍ ويدا عفريتٍ. كانتْ هذه إحدى معجزاته.

أُعجبَ به الوكيلُ وعرضَ عليه الزَّواج من أخته فاعتذر. ثلاثة أطفال ينتظرون عودته. و"بنيلوب" تحوكُ الثيابَ لتدفعَ عنهم الفقـــر وبردَ الشتاء. وعيناها زائغتان وراء الأفق.

وفي بيروت، عرض عليه عبد القادر سنُّو أن يشتغل معه لقـــاء خمسة آلاف. فعرف البكداش بالنبأ. وعرض عليه البكـــداش ســـتَّة آلاف شرط أن لا يغادره. فوافق وأبى أن يزيدَ الأجر. فكانت معجزة جديدة.

عاد البكداش يعرض عليه أن يكون له شـــريكًا في "المهـــدي". ودخل معهما شريك ثالث هو عليٌّ الثَّمين. وهكذا أصـــبح الـــرَّيِّس مصطفى شريكًا في السفينة وقبطانًا في آن. له الرِّبح وله الأجر.

* * *

من نجاح إلى نجاح. حقّق الرَّيِّس مصطفى أمنيته. وأصبح قبطانًا شهيرًا بين قباطنة الشرق. عاشق للسَّفَر والمغامرة والـــرِّبح السَّـــريع. وهَّاب كسَّاب. الجودُ فطرة ورثها عن أمِّـــه كمـــا ورثَ الطِّيبـــةَ والبشاشة. أبوه لم يترك له مالاً. لقد أورثَه البحر ومراكبه وشـــطآنه وعواصفه وأنواءه وأسماكه وحيتانه. عِشْ عيشة الكفاف كـــالنَّورس. البحر مليء بالأسماك. ولكنَّ سمكة صغيرة تكفي لسدِّ الرَّمق.

أدرك الرِّيس مصطفى أنَّ المال عزٌّ وأنَّ النساءَ يحبْـــبْنَ الرَّجـــل الكريم. فقديمًا ذبح امرؤ القيس ناقته للجميلات. وها هو يقود ناقته في البحر محملةً بالبضائع والهدايا.

اشترى وشريكاه بابورًا جديدًا يُدعى "الحسن". وعلى صهوته قرَّر أن يمخر عُباب بحر إيجه ويسافر إلى بلغاريا. من مرفأ طـــرابلس الشَّام بدأ الرِّحلة، وعاج على جزيرة قبرص. ثمَّ عبر بناقته البحريَّـــة الدَّردنيل فبحر مرمرة فالبوسفور ثم مخَرَ عُباب البحر الأسود. وداعًـــا قبرص أهلاً تركيا. وداعًا إسطنبول أهلاً بلغاريا. لكل بحـــرٍ مـــذاق ولكل بلدٍ رائحة.

لاحتْ له بورغاس[1] مثل عروس البحر، مستلقيةً تحت الشَّمس والنَّسيم المزبد يداعب شعرها الطَّويل. غيمتان ورديتان تحومان فوق المركب. وشذا الرَّبيع المالح يفوح عند الشطآن. على متن المركب في الليل يتعرَّف إلى "كيتي". موظَّفة بسيطة قدَّم لها الشَّايَ تحت ضوء القمر. دعتْه إلى بيتها فلبَّى الدَّعوة. منَّى نفسَه بمعاشرتها واتِّخاذها خليلة. ولكنَّ كيتي تمنَّعتْ. قالتْ سأتَّخذكَ أخًا لي. نحن بنتان وليس لنا أخ. ستكون أخانا يا ريِّس. بيتها متواضع وجميل كالفندق. تحيط به حديقة صغيرة. كان القمر هلالاً عندما تعارفا. أمُّها وأبوها لا يلتقيان إلا نادرًا. شيوعيَّة هي حتى العظم. تعقد شَعرها بربطةٍ حمراء. لا تلبس قميصًا يخلو من خطٍّ أحمر. ولا تحتذي حذاءً خاليًا من وميضٍ أحمر. وإذا نزعتْ ثيابها لتستحمَّ، برز في صدرها الوشمُ الأحمر.

دَعَتْه إلى العشاء، فبدأ الأكل باسم الله. وذهب ليغسلَ يَديْه فبدأ باسم الله. رآها في قميص النَّوم فشهق ما شاء الله. لم تكن تدرك أنَّ هذا اللغو عادةٌ شرقيَّةٌ. قالتْ له وهي تبتسم: هل تؤمن بالله يا عزيزي؟ نعم. هل رأيته. لا. في آخر الليل عندما تأوي إلى السرير هل يضع لك مالاً تحت المخدَّة. كلا. عليك أن تعمل وتشقى لتجني المال. بالمال تأكل وتشرب وترقص.

بلع الريِّس ريقه. وفتَحَ عينيه اندهاشًا بجرأتها. فهو لم يكلِّفْ نفسه يومًا عناء التَّفكير بالله واليوم الآخر. أدمنَ أشياءَ ثلاثةَ في حياته: السَّفَرُ والخمرُ والنِّساءُ. هذا هو ثالوثهُ الأقدس. الحلال ما يرضيك والحرام ما يشقيك. هذه شريعتُه.

---

(1) مدينة بلغاريَّة.

سلَّمَتْه كيتي مفاتيحَ البيت و لم تسلِّمه مفاتيحَ قلبها. طافتْ به بلغاريا من أقصاها إلى أقصاها. شربتْ معه الخمر في الحانات، ورقصتْ وسكرتْ وعلَّمته الأغاني الشعبيَّة. يسهرانِ في الليل وينامانِ في النَّهار. ضاجعَ البغايا. دخلَ مرفأ بورغاس و لم يدخلْ مرفأ كيتي.

يسمِّي العربُ الغزوَ فتحًا مبينًا. يفتحون البلدان وأرضها ونساءها. فتحَ النوتيُّ الأسمرُ بلغاريا وانهزمَ أمام أسوارِ كيتي الحمراء.

* * *

كان يعلّق في رقبَتِه سلسلةً ذهبيَّةً وقـلادةً نُقِشَتْ عليها آية الكرسي. تعويذتُه السِّحريَّة في سفرِهِ المحفوف بالأخطار. وإلى جانبهِ ماكينةُ اللحام والأوكسجين. يتفقّد البابور قبل الإقلاع. يملأ الخزَّان بالوقود. يتأكَّد من سلامة المحرِّك. يوزِّعُ المهامات بين مساعديه السَّبعة.

حنَّتْ نفسُهُ إلى السَّفر واشتاقتْ إلى كيتي. رأى من بعيدٍ مرفأ بورغاس يعجُّ بالسُّفُن والتُّجَّار. أقلعتْ سفينة الشَّوق وخيَّم الليل. أطلَّتْ نجوم المتوسط من سمائها ترعاه ويرعاها. مخَرَ عُبابَ البحر الأسود خفيفًا. لم يشعر بأنه ربَّان سفينة بل قائد أسطول. تخيَّل أنَّ كيتي تنتظره على الشاطئ. تشهق له وتعانقه. تبوسُ جبينَه الأسمر وتشمُّ رائحةَ جلدِهِ الدَّبق.

الأيَّامُ التي قضاها في البحر كانتْ ساعات. كان القمرُ بدرًا والسَّماء صافية. حين رسا "الحسن" في المرفأ أجهشَ بالبكاء. إنَّه السَّابع من تموز، يومُ ميلادها.

السَّاعة الحادية عشرة ليلاً، تركض كيتي إليه وتعانقه. مثلما تعانق الأختُ أخاها العائدَ من السَّفَر. يشمُّ رائحة الوردة الحمراء في

شعرها، يغمرها بحنان أبويٍّ ويلثم يديها.

ها هما يحتفلانِ بعِيدِ ميلادها. يحيط بهما الأمُّ والأب والأخت، وصديقه الأرعن ماجد الفرَّان. ثلاثًا وعشرين شمعةً يطفئون. يسحب الرِّيس مصطفى من جيبه هديَّةَ العيد: سلسلة معلَّقة بصليب ذهبيٍّ.

شهقتْ كيتي وعانقَتْه. قبَّلتِ الصَّليب وتأمَّلَتْه مَلِيًّا. صَلَّبتْ بالثَّلاث. لها ثالوثُها الأقدس ولَهُ ثالوثُه. دارتِ الألحان والكؤوس وشرعوا في الرَّقص. انطفأ الجميع. ذهبَتْ كيتي إلى مخدعها. تبعها القبطان خلسةً، وجدها مثلَ جُثَّة. نزعَ عنها ثيابها قطعةً قطعةً. تأمَّل بصَمتٍ سروالها الأحمر ثم أزاحَهُ برفق. وقفَ يحدِّق في بياضها المشع وفرجها الوردي. دار به البيتُ ودارتْ به الأفلاك. تسلَّلَتِ الأمواجُ إلى السَّرير. انتصبَ زورقهُ الهائج. بلَّلَ الماءُ عنقَها ونهديها. طلع القمرُ على جسدها العاري. والغريبُ ثابتٌ في مكانه. تحرَّكَ الحلزونان الصغيران في صدرها متثائِبَين. أشار بإصبعه إلى البطن الضَّامر ولم يلمسْها. ظلَّ محافظًا وبشجاعة على ميثاقِ الشَّرف.

خرج من بيتها وحيدًا إلى الجهة الأخرى من الليل. ومشى على الشاطئ الرملي الناعم. عادَ إلى السفينة وأحضر زورقًا. أبحرَ فيه تحت ضوءِ القمر إلى جزيرة سانت أناستازيا. شعرُه مبلَّل بندى الليل ورذاذِ الموج. مشى حافيًا على الحصى والرمل. قصَدَ الكنيسةَ المهجورةَ وسط البحر. دخلها خلسةً مثل قرصان. تخيَّل قراصنةً قادمين من بعيد، فاختبأ وراء المذبح. عَرَتْه قشعريرة. بعد قليل شعرَ بالأمان. نهضَ يحدِّق في ظلال النُّور على الجدران المزيَّنة بالفسيفساء والنُّقوش اليونانيَّة. لمس وجوهَ القدِّيسين. وقفَ يصلي كمسيحيٍّ وَرِع. أبانا الذي في السماوات، ليتقدَّس اسمُك. امنحْ حبيبتي كيتي السعادةَ

والبَرَكة... أخذَتْه سِنةٌ من نوم ثمَّ أفاق. أشرقتِ الشمسُ مـــن وراء الضَّباب على البحيرة الدَّاكنة. أخذ يتمشَّى في حديقة الـــدَّير. جمـــعَ الأعشابَ وصنَعَ شايًا. شربَ الشَّايَ وَحدَه. في صحَّتكِ يـــا كـــيتي صاحَ ملءَ فمه. في صحتَّكِ يا بلغاريا. في صحَّتكِ يا بورغـــاس. في صحَّتكِ يا أرواد. يا جزيرتي الأولى.

لمحَ غابةً صغيرةً من النخيل. تمنَّى لو يقضي بقيَّة عمره في هـــذا الدَّير راهبًا متنسِّكًا علَّه يقمع غريزة القرصان المتأصِّلة في دمـــه. إنَّ قدره أن يعيشَ دائمًا في اللامكان.

* * *

نساءُ الموانئ في كلِّ البلاد عاهرات. قذفَ بهنَّ البحر كالأسماك على الشَّواطئ، من كل لونٍ وطعمٍ. الميناء يا أستاذ ماخور كبير. كان القبطان يحدثني وهو يجرعُ بأناةٍ قنِّينةً من الكحول. الخمرةُ تجعل الإنسان أكثرَ فصاحة. الهذيانُ وسيلة قديمة للتَّعبير عن خفايا الإنسان وخباياه.

في كل مرفأ حاناتٌ ومواخير. ونساءٌ ينتظرنَ البحَّارة القادمين عطاشًا والماءُ من فوقهم ومن تحت أرجلهم. البحَّارة يحملون الهدايا. السَّجائر وقناني الويسكي مقابل المتعة العابرة.

الميناءُ ملتقى الحضارات. عندنا السُّمر والشُّقر والعيونُ الزرقُ والخضرُ. الملوَّنة وغير الملوَّنة. عيونُ الضَّفادع وعيونُ عروسُ الفأر. عندنا اليونانيَّاتُ والرومانيَّاتُ البيضاواتُ والزنجيَّاتُ. هواءُ البحر يا سيِّدي يلفحُ النُّفوس ويهيجُ الفروج. والمرأة السَّوداء لها بظر طويل يشبه قضيبَك. إنَّها هي التي تنكِح الرِّجال.

عرفتُ في مصر صديقًا يُدعى عبَّود الجبيلي. قال لي إنَّ أمَّه في جبيل قذفتْه وهو طفل في الفُلْك وسلَّمته لحنان الأمواج، فحَمَلَه التَّيَّار إلى شواطئ الإسكندريَّة. فالتقطَهُ أَحَدُ البحَّارة وربَّاه. ولكنَّه لم يصبح

ملكًا ولا نبيًا بل أصبح بحّارًا ماجنًا يدخّن السِّيجار ويشربُ النَّبيـــذ ويعاشرُ بائعاتِ الهوى.

هو موسى الفينيقيُّ التَّعيس الحظِّ. وكم من نساءٍ قذفنَ أطفـــالاً بجهل آباءهم في الفلك، ليحملهم المدُّ إلى الضَّفَّة الأخرى من البحر.

في الميناء، في كلِّ ميناء، حاناتٌ أكثر من المساجد، ومـــواخيرُ أكثر من الكنائس. ونساءُ البحَّارة المهجورات يضاجعنَ صبيان الأزقَّة وعابري السَّبيل. البظر يا أستاذ لا يرحم إذا هاج.

في الميناء، حَيٌّ مُسلِم وحَيٌّ مسيحيٌّ وحَيٌّ يهوديٌّ. حَيٌّ شرقيٌّ وحَيٌّ غربيٌّ. حَيٌّ يونانيٌّ وحَيٌّ تركيٌّ. حَيٌّ أشوريٌّ وحَيٌّ أرمـــنيٌّ... ثقافةُ النِّسوة مكتوبةٌ على أثوابهنَّ الداخليَّة. يتهجأها المؤمن والكافر، الصَّائغ والبقَّال والنجَّار والحدَّاد والزجَّاج والسَّمكريُّ...

وظلتِ الخمرة تنضحُ بالحكمة على لسان العجـــوز. فأضـــاف قائلاً: البشر يا أستاذ مقامات. هذا حَمَّال وهذا زبَّال. هذا أمير وهذا شحَّاذ. هذا مثقَّف وهذا جاهل. هذا غنيٌّ وهذا فقـــير. لا تحـــاولْ إرشادَهم إلى ما تظنُّ أنَّه الخيرُ لهم. إنَّهم مُيَسَّرون لما خُلِقـــوا لـــه. لا تحاولْ تضميدَ أوجاعهم. دعهم يداوون آلامهم بالأوهـــام. النَّـــاس المتألمون سُعداء بعض الشيء. هُم قَدَريُّون. إذا ربحوا يقولـــون إنَّ الله رزقهم وأفاض عليهم. وإذا خسروا حمدوا الله وقـــالوا إنَّ الله يغفـــر ذنوبَهم ويمنحهم أجرًا لا يقدَّر بالمال. إذا تعـــافَوا يشـــكرون، وإذا مرضوا يصبرونَ ويشكرون. الله بالنسبة لهم ليس معادلةً فلســـفيَّةً أو رياضيَّةً. الله ربٌّ طيِّبٌ مثلهم. سريعُ الغضب ولكنَّه حَنـــون. وهـــو عادل وحكيم. لا تحاولْ يا أستاذ، أن ترفعَ الأدنى منكَ إليك. بـــل انزلْ أنتَ إليه.

كان في ما مضى سائقٌ يقودُ بي السَّيَّارة إلى المطاعم والفنادق الجبليَّة إذ أخصُّ أسرتي بيومٍ من أيام الأسبوع. في المطعم، حجزتُ لي ولأسرتي طاولة، وله طاولة. لم تسمحْ لي إنسانيَّتي ورجولتي بأن أتركه ينتظرني وحيدًا كالكلب في السَّيَّارة. فماذا كانت النَّتيجة. فاتورتُه ضِعفُ فاتورتي. لم يكتفِ بالطَّعام والشَّراب والنَّرجيلة، بل راح يعبُّ الكحول كمن لم يذق الأكل والشُّربَ في حياته.

لم يُخلَقِ النَّاس ليكونوا كلُّهم فلاسفة أو عباقرة أو رسَّامين. أو قباطنة شجعانًا مثلي. أنت تحتاجُ إلى الزبَّال والحمَّال والسَّائق وبائع القهوة المتجوِّل. أنتَ لولاهم لما كنتَ كما أنتَ. الشَّحَّاذ وضعتْه المشيئة في الطَّريق ليمدَّ يدَه إليك، فتُسعِدُه بالنُّقود ويُسعدُكَ بالدُّعاء. الحياة أخذ وعطاء.

* * *

أخَذَ رشفةً من فنجان القهوة وسألني: هل تعرف جيِّدًا سُـــوقَ "النحَّاسين" يا أستاذ. ودون أن ينتظرَ جوابـــي راح يحدِّثني بشـــغَفٍ عن هذا السُّوق التُّراثيِّ العريق في مدينتنا. يعود هذا السوق إلى عهد المماليك، أولئك الأقزام. نعم. كان لهم شأنٌ ذات يـــوم. قصـــدْتُه لأبتاعَ نحاسيَّةً أهديها إلى كيتي في الرحلة القادمة. قلتُ للبـــائع ذي الوجه النُّحاسيِّ: افعلْ ما أريد.

انقشِ الحرفَ الأوَّل من اسمها على وجه، والحرف الأوَّل مـــن اسمي على الوجه الآخر، بخَطٍّ عربيٍّ مبُين. وهكذا كان.

يمتدُّ السُّوق، يا عزيزي، من حَمَّام "عز الدين" إلى محلَّة "التربيعة"، ومنها إلى السَّراي العتيقة. وهو الحَدُّ الفاصل بين سوق "البازركان" وبين خان "الخيَّاطين" والأحياء المؤدِّية إلى سوق "حراج" و"بركة الملاَّحة".

وتوقَّف قليلاً عن الكلام وابتلع ريقَه متحسِّرًا وقال: طوفان نهر "أبو علي" جَرَفَ المدينة القديمـــة الـــتي كانـــت بُندُقيَّـــة الشـــرق. الطَّرابلسيُّون القدامى كانوا يمدُّون أيديَهم من نوافذ بيوتهم إلى مـــاء النَّهر. كان ثمَّةَ جسرٌ حجريٌّ عتيقٌ على هيئة قوسٍ يربط بين ضِفَّتيه.

تحطَّم الجسرُ ذاك، المحاذي لجامع "البرطاسي" كما هَدَموا قصرَ بربر آغا الذي يأخذُ العقل.

نحنُ أغبياءُ لا نعرف قيمةَ الأشياء. اذهبْ إلى هناك ستَجد أنَّ سُوق "النحَّاسين" انشطر نصفين، وطريق المشاة تحوَّلت إلى طريق سيَّارات. واستبدل الناسُ بالأواني النحاسيَّة الستانلس وغيره... أين الأواني والأراكيل والمناقِل والصواني والجرار النحاسيَّة؟ أين رائحة العِطارة في سوق "العطَّارين". ماذا هناك غيرُ رائحة الكروش والدُّهون واللحى الملطَّخة بدماء الخراف. أين الحلى السَّاحرة المسحورة في سُوق "الذَّهب". أين مهرجان الأقمشة في سوق "البازركان". أين رائحة الليمون؟ بلدنا لم يعد فيحاءَ يا عزيزي. وأين هم عشاَّق هذا الزَّمن من ذاك. بخمس دقائقَ يتعرَّف إلى فتاة وينساها بعد خمس دقائق. التِّكنولوجيا اللعينة أفسدتْ شبابَنا وبناتِنا.

وبصَقَ القبطان عن شماله، لأنَّ الشَّيطانَ يجلِسُ عادةً من النَّاحية اليُسرى، وأضاف: سافرتُ من جديد إلى بورغاس. طِرْتُ بجناحَين. كأنِّي بجَعَةٌ بحريَّةٌ. صدِّقني. أهديتُ كيتي النُّحاسيَّة الصغيرة المزخرفة باسمها. قامَت وقبَّلتني على جبيني. يا لها من قُبلة فَجَّة. ما ضَرَّها لو قبَّلتني في فمي. فمي المشتعل شوقًا إلى فمها الأوروبيِّ. أحضرتْ لي القهوة ودعتْني كالعادة إلى السَّهرة. ثم قامَتْ وهزَّت ردفيها أمامي. أنا الأسطولُ الشرقيُّ الهرِم العاجزُ عن اللحاق بزورق بُلغاريٍّ.

جسمُها الفتَّان يضيء شموعًا للرِّجال الآخرين في الليالي المظلمة. أمَّا أنا فَحَياتِي أعتمُ من شمعةٍ منطفئةٍ. لم تمنحني كيتي نفسَها ولو مَرَّة واحدة. لم تمنحني نصرًا صغيرًا أراهُ أهمَّ من كلِّ انتصارات المجنون جورج بوش الابن.

الناس في أوروبا يسهرون ويرقصون ويشربون ويسكرون. يتبادلون أجسادهم كما يتبادلون المناديلَ الورقيَّة. هؤلاء السُّكارى المجانين يتبادلونَ القُبَلَ في السَّيَّارات، وعلى الأرصفة وفي الحدائق. في كلٍّ مكان.

وكيتي تهزُّ رِدفيها غيرَ مباليةٍ بأكوامِ القنابل الذرِّيَّة والهيدروجينيَّة التي تفجِّر العالم ألف مرَّة ومرَّة. كيتي ترقص غيرَ مباليةٍ بي. وأنا أرقصُ غير مُبالٍ بنفسي.

ثمَّةَ أطفالٌ نائمونَ في الجهة الأخرى من الكوكب، إلى جانب زوجةٍ مهجورة. وكيتي تزهو بسروالها القصير الأحمر وجورَبَيها الأسودين. وبنهدَيها الصغيرين الأبيضين. وأنا أداعبُ ذقني الحليقة للتَّوِّ. أحتسي الجَعَة الممزوجةَ بالدَّمع. كيتي تهزُّ ردفيها. لا بأس. تَدَّخِرُ جسدَها البضَّ للدِّيدان. لا شيء يدعو إلى الإزعاج فهذا مصيرُ الجميع: الطُّغاةُ والملوكُ وباعةُ السَّجائر والحميرُ والبغالُ والضَّفادع...

كيتي ترقصُ في بورغاس. والثَّلجُ يتساقطُ ببطءٍ في أقاصي الصِّين.

* * *

أنا القبطان مصطفى. وُلدتُ في حَيٍّ مسيحيٍّ بالميناء. حيٌّ ملاصقٌ للبحر. أذكر جامعَ عمر عند البوَّابة جارَ البحر. الأمواج تطرطشُ قُبَّتــه. جاءوا بالرَّدم وفصلوا بين البحر والجامع إذ أنشأوا طريقًا حديثةً ورصيفًا عريضًا للمشاة. أنا أحدِّثكَ يا أستاذ عن الماضي، لأنِّي أصبحتُ عجوزًا. عندما كنتُ شابًا مثلك كنتُ أعيش. أنا اليوم ميتٌ مع وقف التنفيــذ. أنا لا أخافُ الموتَ لأنَّه قبطانٌ عتيقٌ مثلي.

كان بيتُنا ملاصقًا للبيوت التي تتجاور كأنَّها خائفةٌ من المــدِّ: زقاقٌ نحيلٌ يُفضي إلى زقاقٍ آخر: تنتشِرُ الأزقَّة كالشَّرايين. القنطــرةُ الحجريَّة بابُ العبور إلى حارتنا. السَّمَّان والحَلاَّق وصاحب المقهــى وصاحب الحانة يتجاورون. الحَيُّ هادئ وتسمعُ السُّعالَ من بعيد.

تسمعُ وشوشاتِ الجارة لجارها أو لجارتها. تسمعُ وقعَ خطــى الأطفال والعابرين كأنَّنا نعيش في قريةٍ لا في مدينة. أنت ابن قريــةٍ يا أستاذ وتعرف ذلك.

لم نكن نعرِفُ المسيحيَّ من المسلم، ولا الأرمنيَّ من اليونــانيِّ. كنَّا نُشبهُ بعضَنا كالبحَّارة. أيَّامنا متشابهة. أعيادنــا واحــدة. أمِّــي

تشتري لي ثيابًا جديدة في أعيادنا وأعيادهم. في رمضـــان الجـــيرانُ يصومون معنا. وفي الفِطر يُفطِرون. في الفصح نلوِّنُ البَيْضَ مـــثلَهم. في الميلاد تُزيِّنُ بيتَنا شجرةٌ تتلألأ بالنجوم. بابا نويل يحمل الهدايا لنـــا ولهم. يقرعُ الجرسَ للجميع. بلحْيَتِه البيضاء وثيابه الحمراء. لم يكـــنِ الله مسيحيًا ولا مسلمًا على أيَّامِنا. كان الله إلهًا واحدًا للجميع. وأبًا للجميع. ابن الميناء مثل السَّمَكة في البحـــر لا يســـتطيعُ أن يعـــيش خارجَها.

لم يكن في بيتِنا قرآنٌ ولا إنجيل، بل قُبَّعة تحمي من الشـــمس. حبَّذا لو نعود أطفالاً. نتخاصمُ ونتقاتلُ ثم نتصالحُ بعد قليل. ننســـى الإساءةَ ونتسامح. الأطفالُ لا يعرفون الحقدَ كالكبار. الأطفالُ أبناءُ الله الحقيقيين. كُلَّما كبُرَ الإنسان يخسر براءته شيئًا فشيئًا. العجـــوز الشَّايب مثلي طفلٌ ماكرٌ. خبيثٌ قذِرٌ. خَبرَ ألاعيبَ الحياة وأكاذيبَها. فهو يتظاهر بالضَّعف والمسكنة، ولكنَّه حربوق.

صدِّقني إنَّ الطفلَ الشِّرِّير خيرٌ من العجوز الطيِّب مثلـــي. أنـــا كنتُ طفلاً شرِّيرًا. أتسلَّق الجدار لأرى جـــارتي المســـيحيَّة وهـــي تستحمُّ. أذكر جيِّدًا إيفان. الفتاةَ ذاتَ التنُّورة القصـــيرة وســـاقيها البضَّتين. سامحني الله. كم زنيتُ بها في خيالي.

ولكنَّ أسوأ يومٍ عِشتُه وأنا طفلٌ في الخامسة هو يوم الطُّهـــور. ألقَوا القبضَ عليَّ وأنا هارب من شفرة الموسى. في آخِـــر الزُّقـــاق المحاذي لكنيسة مار جورجيوس. كنتُ أحاول الاختباء في السِّرداب تحت الكنيسة. قِدِّيسُ المغارة الصغيرة حنونٌ ويحبُّ الأطفال.

طوَّقوني من كل الجهات وحملوني كأرنبٍ مذعورٍ إلى البيـــت. لمعتِ الشفرةُ في عينيَّ. كان أبشع اعتداءٍ على قضيبـــي الصَّغير. لماذا

لماذا؟ صرختُ بهم. قالوا إنَّ الخِتانَ سُنَّة مباركة. أجابني المطهِّـــرُ إنَّ هذه القطعةَ من اللحم، هي رمزُ العهد بين الله وأبينا إبراهيم. المختونُ صالحٌ في عينَي الرَّبِّ. ولماذا لم يخلقنا الله مختونين فنستريح من العذاب والألم. تمتمَ قائلاً إنَّ المؤمنَ مُبتلى. أنتَ ولدٌ وقِح لا تحترم الكبار.

ذاتَ يومٍ، شاهدتُ رفيقي جورج وهو يبولُ عنـــد الصَّـــخرة. صِحتُ به أنتَ غير مَطَهَّر يا جورج. ما زلتَ نجسًا. لن تدخل الجنَّة معي أبدًا. إنَّ الله لا ينظرُ إلى أمثالك. قهقه جورج ضاحكًا وقـــال: قطعة اللحم التي سلخوها منكَ أكَلَتْها القِطَّةُ الجائعة. ثم ولَّى مـــدبرًا وأنا أركض خلفه.

* * *

في الكشك، حيث يضعُ القبطان شاشةً صغيرةً عن يمينــه، يختــار القنوات الفضائيَّة التي تمالئ الحكَّام العرب وتــبرِّر أفعــالهم. لا تلمــني يا أستاذ. جَنابُك رجل مثقَّف، وأعرف ما ســتقول: حرِّيَّــة، عدالــة، مساواة. عاهراتُ فرنسا الثلاث... الرَّبيع العربيُّ. ياسمين تونس. أعشاب ميدان التحرير. بَلَح العراق. ياسمين الشَّام. شعارات شعارات. نحن دائمًا نعيش عليها. قبل عقودٍ هتَفْنا: وحدة، حرِّيَّة، اشتراكيَّة. تفاهاتنا الثلاث. جَنَابك أرجوك أن لا تفهمني خطأ. أنا مع الدِّكتاتور. شعبنا لا يــأتي إلا بالجزمة. الجزمة هي الدُّستور الوحيد الذي نؤمن به.

نحن الشَّرق العظيم، الذي اخترعَ الأديانَ والرِّســالات، المحبَّــة والرَّحمة. نحن اخترعنا بابل والجنائن المعلَّقة، والأهرامات. لنا نِيــلٌ في السَّماء ونِيلٌ في الأرض. نحن اخترعنا إنانا وعشتار وتَمُّــوز وبعــل. واخترعنا عاهرات الجزيرة الثلاث: اللات والعــزَّى ومنــاة. نحــن اخترعنا إله التَّمر وعندما جعنا أكلناه.

أعرفُ أنَّ جَنابكَ يؤمنُ بدينٍ جديد: حقوق الإنسان. قــل لي من أعطى الكلبَ حقَّ النُّباح. وللذِّئبِ حقَّ العُواء، وللحصان حــقَّ

الصَّهيل، وللحمار حقَّ النَّهيق، وللغراب النَّعيب، وللبُوم النَّعيــق... هذه الحقوق لم تَضَعها أنتَ ولا أنا. لا الشَّرق ولا الغرب. لا الله ولا الشَّيطان.

هل يمكن أن تقولَ لي هل الله أم الشَّيطان هو الذي أعطى أبناءَ عمِّنا اليهود صكَّ ملكيَّة أرض التِّين والزَّيتون. الجزمةُ وحدها تعطي.

السِّياسة هي اختراع الكذب. الكذبُ شــعيرُ الــدَّهماء، تــبنُ الجماهير. الجماهيرُ لم تصفِّقْ للمسيحِ على الصَّليب بــل لجلاَّديــه. الجماهير تصفِّق للثَّور المطعون على الحلبة. الجماهير صــفَّقت لهتلــر وموسوليني وستالين ونابليون. الجماهير تصفِّق لمــاردوخ. الجزمــةُ تكتبُ النَّشيدَ الوطنيَّ.

لا تعذِّب نفسَكَ يا أستاذ، الإنسان طينةٌ فاسدة، بصقة ملعونة. تفوووه.

شخصٌ يحدِّثكَ عن الحرِّيَّة. وهو يركلُ امرأتَه على قفاها. الثَّورةُ قمْ لأقعدَ مكانك. الكرسيُّ. وَحدَه الكرسيُّ يحرِّكُ الثَّورات.

السَّجين يخرج من السِّجن، ويحلمُ بوضــعِ السَّــجَّان خلــف القضبانِ. نلسون مانديلاَّ. ذلك الأسودُ الطيِّبُ مات. وَحدَه من عفا عن سَجَّانه. هذا تاريخنا. كومةٌ من الأشلاء. الأخ يذبحُ أخــاه مــن أجل الكرسيِّ. بدأنا بحربِ النَّاقةِ والجمــل، وانتــهينا بالصَّــاروخ والقنبلة، الكيماويُّ مُبيدٌ رائعٌ للبشر.

نحنُ العرب يا أستاذ، أدمَنَّا البسطارَ العســكريَّ، نمــدُّ رقابنــا ونقول هيَّا دُسْها. البسطار، الجزمة نعم تليق بنا.

قاطعتُه محتَجًا: أنتَ تُبالغ. تُصدر أحكامًا عميــاء. متشــائم، يائس، جبان، خانع، ثرثار. قبطان يبكي على حُطام سفينته نحن من

عَلَّمَ الناسَ الحرف. نحن من عَلَّمَ التَّسامح. نحن المعلِّمين الأوائل. شعوبُنا ليست قطعانًا كما تشتهي أن تكون. بأيدينا المضرَّجة ندقُّ أبوابَ الحرِّيَّة. الحرِّيَّة تُؤخذُ ولا تعطى.

ضحِكَ القبطان وقال: انظرْ لم يعدْ في فمي أضراس. دماغكَ معطوبٌ بالشِّعارات. شخصانِ صنعا قَدَرَنا وحدودَنا: سايكس وبيكو. جعلوكَ مواطنًا لبنانيًا بالرَّغم من أنفك. وقد تصبحُ غدًا مكسيكيًا أو برازيليًا أو فارسيًا أو تركيًا.

الرَّبيعُ يأتي. نعم يأتي. ولكنَّه لا يأتي على ظهر الدبَّابة. الرَّبيعُ لا ينبُتُ بمرسوم. ولا يُلغى بفرَمان. ولا يأتي على شكل قرارٍ صادرٍ عن نادي اللواط الدوليِّ. الذي يسمُّونه مجلس الأمن البطِّيخ.

هذه الحالة لن تدومَ قلتُ. كل الشُّعوب شربتْ من هذه الكأس. ولكنَّها لم تسكتْ. السُّكوتُ هو الجريمةُ الكبرى. شكرًا لك لأنَّك تريدني أن أمُدَّ عنقي للسِّكِّين راضيًا مرضيًا. أنا لن أعبدَ أحدًا من البشر. أؤمن بالتغيير. سيأتي الرَّبيع من عيون الأطفال وجماجمهم، من أفواه الهاتفين للحرِّيَّة في كلِّ مدينة وقرية. سنطردُ الطغاةَ كما طَرَدَنا الغزاة. الأرض بتتكلِّم عربي.

الأرض، ومن يسمع نداء الأرض، قال: أنا أعطيكَ مائة دولار وأطلبُ منكَ أن تنبَحَ فتنبح. خذْ مئتي دولار وانهقْ فتنهق. خذْ ألفَ دولار فتؤجِّرني امرأتَك. تبيعني شرفَك. خذ مليونًا فتصبح أبا دبُّوبة الزنجي[1] المهرِّج الظَّريف.

الشَّرفُ يا قبطان لا يُباع ولا يُشرى. كلامكَ عشوائيٌّ يخلُطُ القمحَ بالزُّؤان. الشَّرف. أين يكون يا أستاذ؟ بين ساقَي امرأة. هذا

(1) شخصيَّة جاحظيَّة.

هو شرفكَ وشرفي. أن تسرقَ وتقتلَ وتكذبَ فأنتَ شريف. أمَّـــا أن تذهبَ أختكَ أو ابنتكَ لتشربَ القهوة مع صـــديقها، فأنـــتَ بـــلا شرف.

قصَّتنا طويلة، نحن ننتحر كل يوم بالمفرَّق والجملة. الحوريَّـــاتُ ينتظرن هناك خلف باب الموت. الأبرياء يموتون. جئني يـــا أســـتاذ بانتحاريٍّ يفجِّر نفسَه ضدَّ الجهل. مسكين. لن يجد أحدًا ينتظره عند الباب.

* * *

أنا أحترم اليهودَ يا أستاذي العزيز. مرَّةً كنتُ أنقل التُّفَّاحَ من صُور إلى بُور سعيد. ومعي سبعون راكبًا. اجتزتُ البحرَ بعد ثمانية أميال من النَّاقورة. أحببتُ أن أوفِّر الوقود. وحين أصبحتُ مقابل حيفا على مسافة ثلاثين ميلاً، في ضهر البحر، جاءت الزوارق الإسرائيليَّة وحاصرتِ السَّفينة. طلبوا منِّي الدُّخول إلى ميناء حيفا فرفضت. هدَّدوني فدخَلتُ. أوقفْتُ السَّفينة وجاءوا بالحبال الغليظة وربطوها بالزوارق ولبَّصوها بالشَّاطئ. جاء المسؤول اليهوديُّ. من هو القبطان. أنا. أنا أبو يوسف. أنا أبو جواد. تشرَّفنا. إنَّه يتكلَّم العربيَّة بطلاقة. انزلوا جميعًا. جاءوا بالأوتوبيس وصعد الرُّكَّاب إليه. وهناك درَّاجات مواكبة. قادونا إلى التحقيق في مخيَّم عسكريٍّ. كان معي زوجتي المصريَّة وابني البكر منها فريد. كان عمره سنة واحدة. وُلِدَ عام 1975. سألني المحقِّق: أنتَ عميل لياسر عرفات؟ ضحكتُ وقلتُ لا. لديَّ من الفلوس أكثر منه. بل ما يكفي لجعلكَ أنتَ والسَّيِّد عرفات تعملان معي. قال إنَّ معلومات استخباراتنا تفيد ذلك. الله في السَّماء ومخابراتنا على الأرض. قلتُ إذا كانت

مخابراتكم تعطيكم هذه المعلومات فأنصحكم بتغييرها.

قال لي لقد دخلتَ مياهَنا الإقليمية. قلتُ لا. كنتُ في ضهر البحر على مسافة ثلاثين ميلاً من حيفا – الكرمل. قال مبتسمًا بخبث: والنَّاقورة؟ قلتُ النَّاقورة نعم. أنتم تقولون في المذياع إنَّكم فتحتم حدودكم لنا. فقلتُ في نفسي إنَّنا تصالحنا. غمز بعينه وقال لي: لستَ هيِّنًا. جوابكَ على رأسِ لسانكَ. نحن نقصِد دخولَ حدودنا من البَرِّ لا من البحر. لم أكن أعلمُ يا سيِّدي المحقِّق...

أنا يا أستاذي العزيز، لم أتركِ البابور إلاَّ رغمًا عني، فوَّضتُ أحَدَ مُساعِدِيَّ بالبقاء مكاني والانتباه. كان في حوزتي حينذاك ثلاثماية ألف ليرة. وضعتُ المبلغَ في عُبِّي. فاليهودُ حراميَّة. في المعسكر أقامُوا حفلة ديسكو فرقصوا جميعًا إلا أنا. أحضروا إلينا العشاء، فأكلوا وامتنعتُ. أحضروا الترويقة، فأكلوا وامتنعتُ. أحضروا الغداء فأكلوا وامتنعتُ. جاءني المخبر الإسرائيليُّ وسألني: لماذا لا تأكل. ألا يعجبك طعامُنا. أم في رأسِكَ موَّال؟

قلتُ إنَّ أرزاقَ النَّاس في رقبتي. العنبر مُفَوَّل بالتُّفَّاح. وأخاف أن تفسُدَ البضاعة وتقع الكارثة. قال اطمئنَّ ولا تخف.

ابني فريد الصغير نَجَّسَ وبالَ على نفسه. جاءتْ فتاةٌ يهوديَّة ومسَحَتْ عنه النَّجاسة ونظَّفتِ المكان. أمُّه واقفة زيُّ اللوح.

سألتُ العجوزَ اليهوديَّة التي تحضِّر الطَّعام في المطبخ متى سيطلقون سراحَنا. قالت لا أعلم. بعد ثلاثة أيَّام قالت لي سيخْلُون سبيلكم. قلتُ وما يدريكِ قالت لأنَّهم لم يأتوكم بالعشاء.

في الصَّباح، خرج الرُّكَّاب الأسرى إلى السَّاحة. ثمَّ طلعوا بالأوتوبيس. صرَخَ المخبرُ من سمح لكم بالصُّعود. أنتَ؟ قلت لا

سلطةَ لي عليهم. لو منعتُهم لقالوا إنِّي عميل إسرائيليٌّ. ما حـــيلتي. أنزلوهم جميعًا قال. عليكم العودة إلى مضاجعكم. عليكم تنظيـــفُ المكان وترتيبُ الأسِرَّة. يجب أن تعودَ كما كانت. ما أوسخَ العرب قلتُ في نفسي.

قبل أن نخرجَ من الأسر، أحبَّ اليهودُ أن ينُزِّهونا. أخذونا نشمُّ الهواء في حيفا. ما أجمل هواءكِ يا فلسطين. الهواء يبدو عربيًا.

قال المخبِرُ ونحن مجتمعونَ تحت الشجرة. حدِّثوا عنَّا بالخير. نحن وإيَّاكم يجب أن نعيشَ في سلامٍ وأمان. نحن لم نُهِنْ أو نضرِبْ أحدًا منكم. أقمنا لكم حفلةً ورقصتم مع الجميلاتِ وسُررتم. لا تكـــذبوا فهذه معاملتُنا.

وأقلع البابور فوصلنا إلى بُور سعيد. المخابراتُ المصريَّة المدرَّبة، كانت على سطحِ السفية لحظة الوصول. جاء صديقي المخبِرُ المصريُّ فرويتُ له ما حصل. ثمَّ جاءت الشُّرطة في اليوم التَّالي ظهرًا. لماذا لم تخبرنا بما حصل معكَ في حيفا. أخـــبرتُ صـــديقي وهـــو مـــنكم. فأصبحتُ مطلوبًا يا أستاذ في مكتب التهريب ومكتب المخـــدِّرات وأمن الدولة. ثلاثة أيَّام وأنا أروي لهم بالتَّفصيل ما حدثَ معنا.

* * *

لم يكن من عادتي الخروجُ من البحر الأبيض فمركبــــي يســبح عادةً بين شواطئ لبنان ومصر وليبيا وسوريا وتركيا. وشـــاء القـــدر أن يكون رزقي خارج هذا البحر. عرَضُوا عليَّ نقل بضاعة مواسير أترنيت من ميناء بور سعيد إلى القنفذة. فانطلق مركبــي من بور سعيد عــابرًا قناة السُّويس للمرَّة الأولى. ثمّ دخلت البحر الأحمر بحر المرجان. فكـــان عليَّ أن أستنفر البحَّارةَ وألتزمَ الحيطة والحذر، مخافة أن يصطدم "الحسن" بالحواجز المرجانيَّة حيث تتحطَّم السُفن. ولكنَّ السِّـــندبادَ البحـــري لا يخاف شيئًا. مخرْتُ البحرَ كأنِّي موسى يشقُّه بعصاه. وصلتُ ســالمًا إلى عرض البحر ليلاً، وجاءتِ الزَّوارق لتحملَ بضاعتي المهرَّبة إلى المرفأ.

انتظرتُ المديرَ المسؤولَ عن الجمارك، وحين أبصـــرتُه قادمًـــا انحنيتُ على يديه مقبِّلاً. قال ما قصَّتك قلتُ أنا صاحب "الحسن". لم يعرني انتباهًا كافيًا ومضى به سائقُه في سيَّارةٍ فخمة. انتظرتُـــه مـــرَّة ثانية أمام مكتبه في المرفأ. جلستُ تحت شجرةٍ هناك. وحين أتى تبعتُه حاملاً صندوقةً ملأى بقناني الويسكي. وكنتُ قبل ســاعات قـــد دسستُ خمسة آلاف ريال في جَيب مساعده ويُدعى عبد المجيد. نظَرَ

إليَّ فاحصًا ثم قال أحضِر مركبكَ إلى الشاطئ. قفزتُ فرحًا وفعلْتُ. بدأ العمَّال يفرغون بابوري من البضاعة. تجمَّع القباطنة المنافسون وجاءوا محتَّجين إلى السيِّد عبد المجيد. لماذا تسمحون للرَّيِّس مصطفى أن يُفرغ حمولته قبلنا، وقد سبقناه إلى هذا المكان. فصاح بهم صارخًا: الرَّيِّس مصطفى رجَّال. وهو يشدُّ على الجيم. فسكتوا وعادوا خائبين. ثم أتوا إليَّ يسألون كيف استطعتَ أن تتجاوزنا. ماذا فعلتَ بالمدير وبمساعده. لا شيء. التوفيق من الله. قلتُ لهم. بتوفيقٍ من الله والويسكي. قلتُ في نفسي.

أعطاني الشيخ الغامديُّ صاحب البضاعة ثلاثين ألف ريال مكافأةً على شجاعتي وحنكتي.

وأتاني عرض آخر أكثر سخاءً. فأبحرتُ من جدَّه إلى بور السُّودان بالمركب فارغًا. وعدتُ به محمَّلاً بالذُّرَة لقاء ثمانين ألف ريال حينذاك. تعرَّفتُ إلى الشَّيخ عبد الله آل العبُّود. هو صاحب تكيَّةٍ في جدَّه، تتَّسعُ لأربعين رجلاً ينامون فيها. وعنده في السُّودان قاعةٌ واسعةٌ بلا أعمدة تشبه الجامع.

استقبلنا فيها بمائدةٍ عامرةٍ بالمناسف. أرزٌّ ولحم وبصل وبهار وصنوبر ولوز. أكلنا بأيدينا لا بالملاعق. المنسف شهيٌّ ومطهوٌّ بالسَّمن. وإلى جانبه الزَّباديُّ الطَّازج. أظنُّ يا أستاذ أنَّ الشيخ عبد الله واحدٌ من سُلالة الطَّائيِّ حاتم.

وتعددتْ سفراتي بين جدَّه وبُور السُّودان. أذهبُ ومركبي محمَّلٌ بالبرتقال حينًا وبالسَّيَّارات حينًا آخر، والرُّكَّاب دائمًا. ولدى الشَّيخ آل عبُّود عبيدٌ يرقصون شبه عُراة. ويقرعونَ الطبولَ احتفالاً بالضُّيوف القادمين من البعيد والقريب...

وفي خُور الكلاب ترى الفتيات الزنجيَّات عاريات. وفي عتمة جلودهنَّ السَّوداء تلمع أسنانهنَّ البيضاء. قيل إنهنَّ أثيوبيات مُهجَّرات يتخذنَ من خِيمَ الخشِّ مسكنًا. يُطفئن بأجسادهنَّ الحارَّة عطشَ البحَّارة لقاءَ رشوةٍ تافهة.

قال لي الشَّيخ آل عبُّود طال عمره. ما رأيك يا ريِّس لو أصبحتَ عديِلَ عبد الرَّحمن وهو صِهرُه. أجبتُ إنَّ لديَّ زوجةً في لبنان. قال إنَّ دينَنا الحنيف يسمح لك بأربع. فأجبتُ بخبث: ربَّنا يسهِّل.

ومن بُور السُّودان إلى الإسكندرية، أقلع بابوري محمَّلاً بالبطيخ. هذا أنا أمخرُ البحارَ كأنِّي حوتٌ أزرق. لا أخاف مدًا ولا جزرًا، بابتسامتي هزمتُ الأمواج.

ومن طرطوس عدتُ محمَّلاً بالفحم البتروليِّ. تقدَّم أيُّها "الحسن" بخطى ثابتة. في مرفأ طرابلس ألقيتُ أربعين طنًا من الفحم في الماء. أنا مجرِمٌ يا أستاذ. فقلتُ ألا تخشى تلويثَ البحر وتسميمه. قالَ أخت البحر.

ثم تابع حديثه. حمَّلتُ في العنبر أشرطةَ دجاجٍ بدلاً من الفحم الذي رميتُه. طلب منِّي شريكي أبو علي سنُّو أن أنتقلَ إلى صُور. البَرُّ لم يكن آمنًا يومذاك. إنَّها الحرب الوسخة في السبعينيَّات. وفي ميناء صُور خمسماية راكب ينتظرون. عرضوا عليَّ نقلهم إلى مِصر لقاء مائة ليرة عن كل رأس فوافقت.

أراد التَّاجر الذي ينتظِر سبعمائة طنًا من الفحم في الإسكندريَّة، أن يزِنَ الفحمَ فرفضت. دفعَ لي الأجر كاملاً قبل الوزن. تغدَّيتُه قبل أن يتعشَّاني.

من البحر الأحمر، يا أستاذي العزيز، قطفتُ المرجان. نبتة حيوانيَّة عجيبة. حين خرجتُ بها إلى الهواء تحجَّرتْ في يدي. وماذا فعلتَ بالمرجان؟ بعتُه في أرواد.

عندما أطفأتُ المحرِّكات في عرض البحر، على مسافةٍ قريبة من الشاطئ، كان القمر يُطلُّ بخفرٍ من فوقنا، ويرسل شعاعَه ليمتزجَ بالموج الهادئ. قفزتُ وبحَّارتي في الزوارق ورحنا نصطادُ الأسماك. ثمَّ عدنا إلى المركب وشويناها. أكلنا بأيدينا وأرجلنا. وسالَ لُعاب القمر في الصُّحون مَرَقًا. نحن يا أستاذي العزيز نعيش في جنَّةٍ لا نعرفها. النَّاسُ يعبرون على الكورنيش، ولا يأبهونَ لبحرٍ يُغيِّر ألوانَه. اقعدْ هناك تحت خيمة القشِّ. ضَعْ قدميكَ في الموجِ، ودعِ الرذاذَ يبلِّل وجهَك. والتفِتْ إلى جهة الشَّرقِ تَرَ جبالاً تسبِّحُ الخالق. ناصعةَ البياض صيفًا وشتاءً، وعلى سفوحِها وتلالِها تتناثر القرى مثل اللآلئ. كنتُ كلما عدتُ من سَفَرٍ، يهدأ قلبي وينشرح صدري عند رؤية هذه الجبال. نحن نعيشُ في جنَّةٍ ولا نشعرُ بها.

أنتَ يا صديقي ابن الجرد، امشِ حافيًا إلى الغابة البعيدة. واسترحْ في ظلال الأرز واللزَّاب والصَّنوبر، وانظرِ الحَجَل يكرج أمامك، والسَّنابلَ الشقراءَ تتمايل، والعصافير تُسبِّح في القدَّاس من حولك. والأنهارُ تجري تحت قدميك لبنًا وعَسَلاً. نحنُ نعيش في جنَّةٍ لا نعرفها.

أنا العجوزُ الذي لم يحلِّلْ ولم يحرِّمْ في حياته شيئًا. ولكنِّي أؤمن بالله. لا يمكنُ لإلهٍ عظيم أن يضعَ عقلَه في عقل مخلوقٍ حقيرٍ مثلي. إنَّه سيُسامحني على ذنوبي الصغيرة والكبيرة. أنا حشَرَةٌ من حشَرَاته، وحُوتٌ من حِيتانه. نتشاكسُ في هذا العالم ونتعاركُ من أجل أن نعيش.

الأبُ يا أستاذي العزيز، لا يُميِّزُ بين أبنائه، بل ينظُرُ بعطفٍ زائدٍ إلى ولده الأزعر. وكذلك هو الله، له المثلُ الأعلى. لن يُميِّزَ بينَ مَن يُصلِّب له بالثَّلاثة أو بالخمسة، ولا بين من يصلِّي واقفًا أو راكعًا. المهمُّ أن يصلِّي بقلبٍ خاشع. ربُّنا لا يؤاخِذُ الطِّفل الذي يقلِبُ الراءَ لامًا وهو يتلو سُورة الفاتحة، أو الطِّفل الذي يغمغمُ وهو يصلِّي الأبانا والسَّلام عليكِ يا مريم. ربُّنا ينظرُ إلى قلب الطفل ووجهه البريء.

فلماذا نحن البشر الأغبياء نلوِّث الأرض. لماذا نذهبُ إلى الحروب كالقطعان. صليبٌ في وجه هلال. لِحية أمام لِحية. عمامةٌ أمام عمامة. جيوشٌ مدجَّجَة بالحقد والسِّلاح، شبابٌ يذهبون إلى الموت مبتسمين. غسَلُوا أدمغتنا، وأفسَدوا غرائزنا. الحكَّام القذرين. رأيتُ يومًا خنزيرًا يقفز من الشَّاحنة المسرعة لأنَّه أدرك بغريزته أنَّهم يقودونه إلى الذَّبح. الخنزير يعرف قيمة الحياة أكثرَ من الإنسان.

الإنسان هو هو في كل مكان وفي كل زمان. في الصِّين والهند وروسيا وإيران وتركيا واليونان. في مصر والجزيرة العربية واليابان ومدغشقر. في الصُّومال وبلغاريا وإيطاليا. في كوبا وجزر الكناريا. في ماليزيا وأندونيسيا والأرجنتين.

الزنجيُّ يجوعُ ويعطشُ ويحزنُ ويفرحُ ويحلمُ مثل الأبيضِ تمامًا. الكرديُّ ينشُدُ السعادة مثل الأرمنيِّ. شمسٌ واحدةٌ تُطِلُّ على هذا الكوكب. وقمرٌ واحدٌ يسمَعُ نجوى العشَّاق في كل زاويةٍ من الكرة الأرضيَّة.

أنهارُنا واحدة وبحارُنا واحدة. كلُّ الفوارق بين البشرِ هي فوارقُ مزيَّفة. صنعها الطُّغاةُ وأبناءُ الأفاعي. ابنكَ يموتُ من أجل كرسيِّ الحاكم لا من أجل الله. لا تُصدِّقْ كذبتَهم.

انظرْ في الميناء، نعيشُ في سلامٍ ووئام. لماذا لا يكونُ العالمُ صورةً عن هذه المدينة الصَّغيرة. أناسٌ طيِّبون مُسالِمون. أسماكٌ قَذفَ بها الموجُ الخُلاسِيُّ على الشَّاطِئ. أنسابٌ مختلطة. لا شيءَ يُزعجكَ سوى السِّكِّير الذي يدخُلُ بابَ جاره سهوًا في الليل.

* * *

لم يتمكَّن نسيبُكَ التاجر من أن يدفعَ لي أجرَ نقلي له شحنة بطِّيخٍ من مِصرَ إلى لبنان. البطِّيخ كسَّرَ بعضَه في العنبر. فأعطاني قِطعة أرضٍ في الجبل مقابل ذلك. أرضٌ بورٌ مليئة بالأشواك، وشجر خوخ الدُّبِّ والعرموط والتُّفَّاح البرِّيِّ. جئتُ بالمعمرجيِّ أبي حسَّان فهندسَ الأرضَ وبناها جَلاً فوق جَلٍّ، وجعل لها من الناحية الشرقيَّة بوَّابةً حجريَّةً تشبه قلعة بعلبكَّ. وغرسها بالتُّفَّاح والدُّرَّاق، وعلى أطرافها شربين وصفصاف وتينة ثمارها ألذُّ من العسل.

ذات يومٍ، زارني أبو حسَّان وكان له في ذمَّتي دَين. وهو رجلٌ طيِّبٌ ونقيٌّ كهواءِ الجبل. قال لي ما رأيكَ يا قبطان لو تعمِّر بيتًا لكَ في قريتنا. فتستمتع بجمال الرِّيف وسكونه وهوائِه وشمسه وغيمِه ومائِه وأشجارِه. قلتُ له يا صديقي لم أُخلَقْ لأكونَ شجرةً أو صخرةً رابضةً على تَلٍّ. أنا خُلِقتُ من بطن أمِّي بحَّارًا. نحن الأرواديين نتعلَّمُ السِّباحة والغطسَ وركوبَ السُّفن في بطون أمَّهاتنا. الفلاَّح يلِد فلاحًا والبحَّار يلِد بحَّارًا.

ثم ماذا، قال أبو حسَّان. قلتُ ثمَّ إنِّي أعشقُ المغامرة ولا أُحِبُّ

أن أعيشَ حياةً رتيبةً مقيَّدة بأعراف النَّاس وشرائعهم. أنا كالحوت لا أعيشُ خارجَ البحر.

أنتم أيها القرويُّون، ماذا رأيتم من الدنيا. هل عرفتَ يا أبا حسَّانٍ النساءَ العارياتِ على الشُّطآن. هل نمتَ في سريركَ وعن يمينكَ ردفٌ وعن شِمالكَ نهد. هل عرفتَ فرجًا غيرَ فرج امرأتِك. هل ركبتَ دابَّةً غيرَ دابَّتِك. كلُّ همِّك أن تجمعَ المونةَ لعيالِكَ والحطبَ لموقدِكَ والعلفَ لحمارِكَ. مملكتكَ بستانكَ وحظيرةُ البقر والدَّجاج أمامَ دارِك.

أنتم أيُّها القرويُّون، لم تعرفوا الرَّقص عُراةً في النّوادي الليلية سُكارى. لم تعرفوا تهريبَ الويسكي والسَّجائر وحشيشة الكيف. أنتم تسكرونَ بالشَّاي والصَّلاة على النَّبيِّ. أنتم تُصلُّون في الحقول ونحنُ نصلِّي في الحاناتِ والمواخير. أنتمُ القرويُّونَ، يا صديقي الطَّيِّب، لن يحاسبَكم الله بل يقولُ لكم يوم القيامة كُونوا تُرَابًا.

ضحِك أبو حسَّان وقال: أتساوينا بالبهائم يا قبطان؟ أقصِدُ أن الله لن يؤاخذَكم على ذنوبكم الصَّغيرة، كأن يسرقَ أحدُكم بيضةَ الدَّجاجة من جاره، بل يسامحكم فيأمرُ البريء أن يركُلَ المذنبَ على مؤخِّرته، كما تنطِحُ البقرةُ البقرةَ وينتهي الأمر.

هواؤكم النَّقيُّ لا يناسِبني. أحبُّ الهواءَ المالح، والشمسَ الحارقة. أحِبُّ البحرَ الهائجَ والجزرَ البعيدة. أحبُّ أن أمخرَ الخلجانَ كما أمخُرُ النساء. المرأةُ قناةُ سُويسي وخليجي وجزيرتي.

قلتُ له: أنتَ لم تختبرْ حياة الريف لتحكمَ عليها. لم تستحمَّ عاريًا تحت الشلاَّل، ولم تنمْ على ضفافِ الجدول، لم تداعِبْ الغيمةُ النديَّةُ وجهكَ، ولم تقطِفْ عناقيدَ الكرم، ولم تذهبْ لسقايةِ البستان

في الليالي المعتمة، حيثُ تترصَّدكَ الشياطينُ في كل منعطفٍ وتحتَ كلِّ شجرة.

قالَ إنَّ ذكرياتي غيرُ ذكرياتِك. أنا ابن السُّوق العتيق والموج والنَّوِّ. ابن الصَّخرةِ المكسوَّةِ بالطَّحالب. ابن البحر المليء بالألوان والأصوات، بل كلِّ الألوانِ والأصوات. ابن الزَّوارق الشِّراعيَّة والسُّفن. أنا صديقُ النَّوارِس والأسماك.

أحبُّ العيشَ في المدن البسيطة الفقيرة، حيثُ لكل فقيرٍ كوخُ أحلامٍ يعيش فيه وحيدًا وينتظرُ حبيبته التي لن تزورَه. البسطاء يعيشون سعداءَ بأحلامهم الرَّخيصة. جَعةٌ وامرأةٌ وسمكةٌ مشويَّةٌ لا أكثر. لكلِّ رجلٍ في الأزقَّة الضيِّقة والأسواق القديمة مجدُه. للمعتوه مجدُه الشخصي. وللعتَّال مجدُه، وللزَّبَّال والحلاَّق والصَّيَّاد والرجل الذي يحتسي القهوةَ والنَّرجيلة. للرَّجل المتَّكئ على الجدار مجدُه، للعجوز المعجبة بساقيها مجدُها. وللسِّكِّير الذي يقِفُ بباب المسجدِ مجدُه. وللعانِس التي تناوبَ الجيرانُ على مُداعبة ثدييها المتهدِّلين مجدُها.

في هذه الأحياء، تستنفِدُ حياتكَ في الملذَّات الصَّغيرة التَّافهة. كعكةُ الصَّباح الطَّازجة، صحنُ الفول السَّاخن، كأسُ الحليب الشَّهيِّ، والذُّبابُ المتجمِّع فوق عَرَبَة الأسماك. هكذا تعيشُ كالذُّبابة مُلتذًا. تتعلَّم العيشَ منذ نعومة أظفارك. فقد أخبرتك يا أستاذي، أنَّني فتحتُ عيني على لذَّة الاستمناء. ثمَّ حَشَرَتني امرأةٌ فاسقة بين ذراعيها. الإنسانُ يتعلَّم كالقرد، بل هو القرد نفسه.

- أنت إذن تشاطرني إيماني بنظرية داروين اللعين، بأنَّ الإنسانَ سلالة قرد؟

- نعم. ولكن هل تحزر أين اختفى ذيله؟
- لا.
- إنَّه لم يستعمله فاختفى مع الزَّمن. العضو الذي لا تستعمله يا أستاذ يموت. فأنا من سبعين عامًا أطعنُ به، وهو يــزدادُ قوَّةً وصلابة. اعتنِ جيدًا بذاك اللعينَ أسفلَ بطنك. داعبــه وغنِّجه وعلِّمه السِّباحة.

وقفتُ مرتبكًا وقلتُ له: وداعًا. امرأتي تنتظرني في البيت.

* * *

كنتُ أشحن خمسة آلاف طنًا من العدَس، من إسـكندرونة إلى الإسكندريَّة. وإذ بالوكيل يسألني من أين أنتَ يا ابن العمِّ. العلويُّون يخاطبون بعضَهم بهذه الطريقة. سمعتُ أحدهم يسألُ الآخر هل هو منَّا. هتفتُ مازحًا أنا منكم يا ابن العم. قال أخت الأتراك. مارسوا التمييزَ والاحتقارَ ضدَّنا. يقولون عنَّا "فلاّحين". نحن عَرَبٌ أقحاح. انظرْ يا ريِّس هناك شركة تركيَّة على مقربة من مرفأ إسكندرونة أنشأتْ رصيفَ باطون لاستقبال البواخِر. أتَوا بعمَّال أتراك لا منَّا. هنا لواء إسكندرونة لا إقليم هاتاي. لن نزوِّرَ هُوِّيتنا. الإنماء في مناطقهم. ويعني الأتراك، من طرسوس حتى اسطنبول، وقرانا الجميلة منسيَّة.

والتفت القبطان إليَّ متابعًا: أسمعُ من زمان يا أستاذ أنَّ دولنا ستقسَّم. فلسطين لإسرائيل، لبنان للموارنة، السَّاحل السُّوريُّ للعلويِّين... أنا عربيٌّ حتى النُّخاع. متحمِّس لعروبتي، وهذا لا يعني أنَّني متعصِّب. أرى جميع البلدان وطني. ولكنَّ وطني الأول والأخير هو قلبُ الإنسان.

الأوطان اخترعوها، والحدود الحمراء كذلك. من أجل أن يتقاتلَ البشر وينتصِروا. تفووه. أيُّ انتصار. تحت التُّراب يتساوى المنتصِر والمهزوم. إنَّ مشهدَ قتيلٍ مضرَّج بدمه، يهزأ بتفاهة الانتصارات المزعومة.

تعرف يا عزيزي، أني عشت سنوات في بلغاريا، حدَّثتكَ عن كيتي التي اتخذتُها أختًا وحافظتُ على عهدي معها احترامًا لعروبتي وإنسانيَّتي. وذاتَ يومٍ، والله، وبينما أنا في الأوتوبيس، وإلى جانبي رجلٌ بلغاري وامرأته. سألتْه زوجتُه عنِّي فقال يونانيٌّ أو تركيٌّ. وأنا أسمعُ الحديث وأفهم. كانت الزَّوجة ترتدي تنُّورةً قصيرة. صفعتُها على فخذيها العاريين. وهتفتُ أنا عربيٌّ. قالتْ أنتَ كذَّابٌ كبير. إذ يبدو أنَّك رجلٌ وسيم وأنيق وشجاع. وكيف يكون العرب؟ أجابت هم سُود بشفاه غليظة. هذا يا أستاذ قبل عصر الفضائيَّات. كان النَّاس في العالم مأخوذين بالدعاية الصهيونيَّة. فالعرب في نظر الأوروبيين وسِخون وجشعون. هل يجوز هذا ونحن أهل الجُود والكرم. أنا أفخرُ بانتمائي. وأبرزتُ لها جواز سفري.

قالتْ كيف تجيدُ البلغاريَّة. قلتُ إنِّي تعلمتُها من شفاه الناس. قالتْ بلؤمٍ كَذَّاب أنت فقد تعلَّمتَها في المدرسة. قلتُ لا يا سيِّدتي.

الجوابُ نفسُه قدمتُه لصَبيَّةٍ حسناء من دوريَّة مراقبة السُّفن. حضر الكونترول ومعهم الطَّبيب ورجال الجمارك والأمن العامِّ. حدثْتُهم بِلُغَتهم كأنِّي بلغاريٌّ أبًا عن جَدٍّ.

أمسِ، في مباراة كرة القدم، لَعِبَ الفريق الجزائريُّ مع الفريق الألمانيِّ. فتيانُنا كانوا يهتفون لألمانيا المنتصِرة باثنين مقابل واحد.

شعرتُ بالدَّم يفورُ في عروقي. الفريق الجزائريُّ رفَعَ رأسَنا. هــؤلاء الفتيةُ أغبياء. يفرحونَ بنكاحِ جدَّتِهم.

* * *

أنا أمُّ جواد. بنتُ الحسَب والنَّسَب. تزوَّجني طمعًا في أمـــوالي. ورثتُ بنايةً في الميناء مقابل البحر. البناية ذات الشَّبابيك الزُّرق. هو الفقير ابن الفقير والغريبُ ابن الغريب. وصفوه لي وأغـــروني بقوَّتـــه وشهامته. فتزوَّجتُه أنا البلهاء. زرعني يا خالتي مثل وردةٍ في فنجان. نكحني فحبلتُ، وسافر في البحر، غاب عنِّي سنتين وعـــاد. وجـــد طفلاً يحبو في البيت. دنا ليعانقَه فهرب منه الطِّفل. هذا الصَّغير نفـــرَ منه. استغرق الأمر أسبوعين ليألَفه. رائحتُه غريبة حين عانقني فـــاحَ من جلدِه عطرهنَّ الرَّخيص. العاهرات. وبقيَّة من ملحٍ دابق به. أقام شهرًا وسافر. بَصَقَ في جوفي ماءه الدافقِ ورحل. ثمَّ عاد بعد عشـــرة أشهر فوجَدَ بين ذراعيَّ بنتًا سمراء. تشبهُه. ألم أقل لكَ إنه بَصَقَها في أحشائي. مكث شهرًا وسافر من جديد. أخذه عدوِّي السَّفَر. حبلتُ منه ثالثةً وولدتُ له أنثى أيضًا. بيضاءَ تشبهني. السَّمراء له والبيضـــاء لي والولد مزيجٌ من خُوار عجل وثغاء خروف. الولدُ كوب عصـــير من ملحٍ وماءٍ وزهر. هو ليس لأحد ولا لنفسه. أنا البلهاءُ يا خالتي، وكانت تناديً الضَّيفَ هكذا، أحبَلُ من رائحته. أحبَلُ من صـــوته،

أحبَلُ لو ضربَ لي بالدُّفِّ على سطح البيت.

لم أشعر يومًا بأنّي زوجةٌ كبقيَّة الزَّوجات. أنا شجرةٌ يستظلُّها المسافر. خيمةٌ يأوي إليها. حانةٌ يدخلُها مثل سائرِ الحانات. ولكنَّها حانةٌ لها زبونٌ واحد، وخمرها تُسكبُ في كأسه فقط.

أنا الخيَّاطة الدميمة. أرى نفسي أميرةً من الأميرات. أعيش من عَرَق جبيني الحلال. ربَّيتُ أولادي الثَّلاثة شبرًا فشبرًا. ضَمَمْتُهم كحمامةٍ تحت جناحيَّ. حميتُهم من الرِّيح وأولاد الحرام. وماذا كان جزائي. زوجي الذي لم يحبَّني يومًا لم يكتفِ بمعاشرة البغايا، بل تزوَّج عليَّ. ليست سعيدةَ الحظ ابنةَ عائلة محترمة مثلي. وليست أقلَّ دمامةً مني. هذا ما يؤلمني يا خالتي. لقد استبدل بقمحِ بلاده الزُّؤانَ الغريب.

كانت أم جواد تفرغُ في سمعي ما في قلبها من قهرٍ وأسى. ولم تعلمْ أنَّ البحَّارَ المتقلِّبَ مثل الأمواج، لم يتزوَّج المرأة الغريبة، إلاَّ للأسباب التي ذكرتها. أحبَّها لفقرها ودمامتها الظَّريفة. لقد انجذبَ عفوًا إلى هذه اللعوب السَّمراء، التي تختزن في داخلها رُوحَ الدُّعابة المصريَّة، وفي دمها الحارِّ توابلُ إفريقيا. إنَّها أشبه بالفاكهة الاستوائيَّة التي تجذبُ الغرباء.

ولا ننسى ميولَ القبطان الخفيَّة إلى امرأةٍ مسترجلةٍ تمشي على إيقاع الصُّنوج، وتعرفُ كيف تكونُ مرفأً آمنًا لسفينته التَّعبى من السَّفر الطَّويل.

* * *

كبُرَ الأولادُ الثلاثة على هدهداتها وأغانيها الحزينة. وهل هناك أعذبُ من أغنية المهد الأزليَّة. كما تهدهِد الموجةُ الشَّاطئ، أغنيتُها. وكما تصفر البواخِرُ أنينها. أرملةُ البحر هي تعيشُ على زاد الغياب، وتحدِّث الصِّغارَ عن مغامراتِ أبيهم السِّندباد البحريِّ.

سلوى، البنت السَّمراء، أصبحَتْ صبيَّةً تلفتُ الأنظار.

جاء الصَّيف وعاد الرُّبَّان واصطحبَ عيلتَه الصغيرة إلى تلك القرية المغمورة عند سفوح الجبال. أقامُوا في البناية التي سمَّاها القرويُّون بنايةَ القبطان. تسابقَ الشُّبَّان إلى خطبتها. وفاز أحدهم بقلبها فقبِلَتْ به زوجًا. وحظيتْ بعرسٍ قرويٍّ زانَتْه الدَّبكة اللبنانيَّة، وأطباق الهريسة الشَّهيَّة. ورُزقتْ بصبيٍّ وبنتين. مثلَ أمِّها.

أحبَّها الجميع، نساء القرية ورجالها وشيوخها. حلوة المعشر ليِّنة الطَّبع. تكيَّفتْ بسرعةٍ مع البيئة الجديدة. فلم تجدْ غضاضةً في حَشِّ الأعشاب وجلب حطب المواقدِ في الشِّتاء. في الرَّبيع كانت تطيرُ كفراشةٍ من بيت إلى بيت. مرفرفةً بجناحيها الغضَّين. كما وجدتْ مُتعةً في مُداعبةِ الجديانِ ومطاردة الدَّجاج. وباختصار، فإن السَّمكة

كبُرَ الأولادُ الثلاثة على هدهداتها وأغانيها الحزينة. وهل هناك أعذبُ من أغنية المهد الأزليَّة. كما تهدهِد الموجةُ الشَّاطئ، أغنيتُها. وكما تصفر البواخِرُ أنينها. أرملةُ البحر هي تعيشُ على زاد الغياب، وتحدِّث الصِّغارَ عن مغامراتِ أبيهم السِّندباد البحريِّ.

سلوى، البنت السَّمراء، أصبحَتْ صبيَّةً تلفتُ الأنظار.

جاء الصَّيف وعاد الرُّبَّان واصطحبَ عيلتَه الصغيرة إلى تلك القرية المغمورة عند سفوح الجبال. أقامُوا في البناية التي سمَّاها القرويُّون بنايةَ القبطان. تسابقَ الشُّبَّان إلى خطبتها. وفاز أحدهم بقلبها فقبلَتْ به زوجًا. وحظيتْ بعرسٍ قرويٍّ زانَتْه الدَّبكة اللبنانيَّة، وأطباق الهريسة الشَّهيَّة. ورُزقتْ بصبيٍّ وبنتين. مثلَ أمِّها.

أحبَّها الجميع، نساء القرية ورجالها وشيوخها. حلوة المعشر ليِّنة الطَّبع. تكيَّفتْ بسرعةٍ مع البيئة الجديدة. فلم تجدْ غضاضةً في حَشِّ الأعشاب وجلب حطب المواقدِ في الشِّتاء. في الرَّبيع كانت تطيرُ كفراشةٍ من بيت إلى بيت. مرفرفةً بجناحيها الغضَّين. كما وجدتْ مُتعةً في مُداعبةِ الجديانِ ومطاردة الدَّجاج. وباختصار، فإن السَّمكة

عندما رجع القبطانُ إلى بيته، وجَدَ امرأته واجمةً وابنته الصغرى متورِّمة العينين. صرخ مذعورًا: أين ابنتي. كأنَّ صخرةً هائلةً سقطت على قلبه. انفجر بالبكاء. شعَرَ بهزيمته المدَوِّية أمامَ القــدر والــتي لا تعوِّضها جميع مغامراته اللاهثة خلف السَّراب.

حملَ قلبَه المطعون واتَّجه إلى القرية المنسيَّة عند سفح الجبل. عبَرَ الدربَ الضَّيِّقَ إلى المقبرة. هداه عطرها الغريبُ إلى قبرها. خرَّ بــين الحجارة راكعًا وصاحَ كالمجنون. سامحيني يا ابنتي. أنا من غدَرَ بــكِ. أنا من ألقاكِ فريسةً سهلةً بين يَدَي الموت. أحسَّ بشيء يَخزُ قلبَــه وأدركَ يُتم الأب الذي هو أشدُّ قسوةً من يُتم الأبناء.

تذكَّرتُ، وأنا أسرد هذه الحكاية، عزيزي القارئ، جلستي تلك مع القبطان في مقهى شعبيٍّ. إذ يتوقَّفُ عن متابعة الحديث وتغرغــرُ عيناه بالدَّمع، حينَ يأتي على ذكر ابنته التي أحبَّته كثيرًا وأحبَّها. قال لي لم يدعِ الدَّهرُ في جسدي مكانًا لضربة ريحٍ أو طعنة موج. ولكنَّ سهمًا أصابني في صميم الفؤاد ولم يبرأْ بعدُ هو موتُ ابنتي السَّــمراء ذات الخمس والعشرين وردة.

هذا المساء، ذهبتُ وحيدًا إلى مقعدي على الشَّاطئ وتحت خيمة السَّعَف. جلستُ مثل عادتي أصغي إلى هدير الأمواج وحفيف أجنحة النَّوارس. وتقمَّصتُ في لحظةٍ شخصيَّة الأب المفجوع، ورحتُ أستذكرُ قصائدَ فكتور هيغو في رثاء ابنته ليوبولدين: Leopoldine:

أحلمُ يا ابنتي بالظِّلالِ التي تحتها ترقدين

واختلطتْ في ناظري سُحنةُ القبطان بلحيَة فكتور هيغو. ورأيتُه ماثلاً أمامي بظهره الأحدب وهو يقطع المسافات إلى تلك الرَّبوة الجميلة في الصَّباح المبيضِّ.

وأدركتُ في هذه الحال سرًا لم يدركْهُ أحدٌ غيري، فعرفْتُ لماذا أوصاني القبطانُ أن أدفنَه في تراب قريتنا. تلك المنسيَّة عند سفح الجبل. إنه يحلم بالظِّلال التي ترقدُ تحتها مطمئنةً سلوى.

* * *

هذا اليوم أفقتُ باكرًا. حَلقتُ ذقني مرَّتين. ولَمَّعتُ حذائي مرتين. إنِّي على موعدٍ مع الصِّيف البحريِّ، مع شمس الجبال الحنون. على موعدٍ مع لامبالاتي. مع التِّمساح المستوحد الذي هو أنا.

غادرتُ الرِّيف إلى المدينة. فالتقيتُ بالقبطان وطلبتُ منه أن نمشي راجلين. كانت الشَّمس تُطلُّ بخفرٍ بشعاعها الواهن. وكانت الطَّائرات تقذف غزَّة. والبراميل المتفجِّرة تنهمر على مدن سوريا. وشوارع بغداد تفوحُ بالأشلاء والدماء.

قرب المقهى المزدحم وقف القبطان سائلاً: هل هناك شيء في غزَّة. تلفَّت النَّاس إلى بعضهم، ورفعوا أيديهم في إشارة إلى جنونه. تابعنا المشوار فتوقَّف من جديد أمام صبايا جميلات يرشفنَ القهوة قائلاً بلهجته السَّاخرة: في شي بغزَّة؟ فعَلَتْ قهقهاتهنَّ. ثم مررنا ببائع السَّحلب فسأله: شو صاير بغزَّة. فهزَّ البائع كتفيه.

وصلنا إلى المقهى البحريِّ. قال لي اخلع نعليكَ ففعلت. وجلسنا معًا على صخرة وغطَّسنا بأقدامنا في الماء الأزرق. بدأ القبطان يُداعب الطَّحالب بحنانٍ كأنَّها أطفالٌ مشرَّدون.

ألمانيا ربحتْ كأسَ العالم. افرحْ يا أستاذ. الفرح هذه الأيَّام مثل الخضار البلاستيكيَّة التي لم تُنضجها الشَّمس.

قلتُ له: ماذا علينا نحن أن نفعل. هل نتوقفُ عن ازدرادِ الطعام واحتساءِ الشَّراب حزنًا على ما يجري في غزَّة وأخواتها من المدن العربيَّة المستباحة؟

ربَّت على كتفي وقال: النَّاسُ على حقٍّ. اللامبالاة طريقةٌ للعيش. المواثيق الدوليَّة، القرارات... يستعملها القَتَلَة. نعم القَتَلة، وهو يضغط الأحرف بفمه، لمسحِ مؤخَّراتهم.

ما دام اللّٰه نفسه لامباليًا، وواقفًا يتفرَّج على المجازر هنا وهناك. هل يُمكِن أن يلومَ عبدَه الفقير على سُكوته. أنا الريِّس مصطفى العجوز الذي فقَدَ ثلاثة أرباع أسنانه، كلُّ ما أستطيع فعلَه هو أن أبصقَ في هذا البحر. من أجل غزَّة وبغدادَ ودمشقَ والقاهرةَ وبنغازي. ابصقْ يا أستاذ مثلي في هذا الموج وسيتغيَّر طعمُ العالم.

قلتُ إنَّ من يراكَ تتكلَّم على هذا النَّحو يحسبُكَ مجنونًا. فاللّٰه نفسُه لن يتدخَّل. بل كلَّفنا نحن النُّبلاء أن نقومَ بواجب إنقاذ البشر من جلاَّديهم. هو يمدُّنا بالرُّوح المعنويَّة والملائكة إذا لزم الأمر. المهمُّ أن نكونَ جاهزين ومجهَّزين بالإرادة والسِّلاح، ولو كان حَجَرًا عاريًا.

نهَضَ العجوز ومشى على الشاطئ، وهو يغرز رجله العارية في الصُّخور المدبَّبة والرَّمل. فتبعتُه صارخًا: لماذا لا تجيبني. هل لديكَ حجَّةٌ على نكوصِك. دعِ اللّٰه جانبًا. ماذا تقولُ لضميرك الذي يخفِقُ في رأسِك. أم هو قد أصبحَ بليدًا مثلك.

التفتَ إليَّ، ثم أسرع وعانقني وربَّت على كتفي. آهِ لو أصبحتُ مجنونًا حقًا. الجنونُ يحرِّرك. الجنونُ يعفيك من الحساب في الدنيا

والآخرة. أمسِ أتى طفل إلى دكّاني ليشتري لعبةً صغيرة. قلتُ له حماكَ الله. إنّ الأطفالَ من أمثالك يحترقون بقصف الصَّواريخ والطَّائرات. قال لي الطفلُ الحكيم. إنَّ الله لا يعلمُ بما يجري. لو كان يعلمُ لدمَّر الأشرارَ جميعًا وأنقذَ الأطفالَ الرَّائعينَ من الموت.

هذه هي الحقيقةُ يا أستاذ. إنَّ لعنة قابيل تطاردنا. الإنسان يقتلُ أخاه بلا شفقة. لو كنتَ مكان هابيل ماذا فعلت. هل تترك أخاك يقتلك أم تقتله أنتَ أيضًا. ثم ضحك القبطان وهو يداعب أنفه الرَّطبة. ما ضرَّ هابيل لو قتلَ أخاه ومات الاثنان معًا. فكان أراحنا من هذا النَّسل الملعون، من أكلة لحوم الأطفال والنِّساء.

حينَ تعبنا من المشي، جلسنا نستريح على كرسيين عتيقين من الخشب. وطلبنا قهوة. في هذه الآونة، وفيما كان الرِّيس شاردًا يتأمَّل الأمواج، أخرجتُ من حقيبتي إنجيل كلكامش، ورحتُ أتلو على مسامعه هذا المقطع الشعري:

إلى أين تسعى يا جلجامش
إن الحياة التي تبغي لن تجد
حينما خلقتِ الآلهةُ العظامُ البشرَ
قدَّرت الموت على النَّاس
واستأثرتْ هي بالحياة
أما أنتَ يا جلجامش
فليكن كرشكَ مليئًا على الدَّوام
وكنْ فرحًا مبتهجًا
في كل يومٍ من أيامك
وارقصْ والعبْ ليلَ نهار

واجعلْ ثيابكَ نظيفةً زاهية
واغسلْ رأسَكَ واستحمَّ في الماء
ودلِّل الصغير الذي يمسكُ بيدك
وأفرحِ الزوجة التي بين أحضانك
وهذا هو نصيبُ البشر.

هزَّ الريِّس مصطفى رأسه. وكأنه عصفورٌ قد بلَّلَ جناحيه النَّدى، وأمسكَ بيدي. وسمعتُه يخاطبُ البحرَ، وهو يناجي نفسَه: عشتُ حياتي بطولها وعرضها. ملأتُ كرشي بالأطياب، وفرحتُ ورقصتُ في الحانات، وخضتُ الأهوال، ولبستُ أجملَ الأثواب وأزهاها، وغسلتُ رأسي بكؤوس الشمبانيا، ودللتُ صغاري، وأفرحتُ الزَّوجة أو الزَّوجتين في أحضاني، وأسعدتُ الخليلات... ولكنِّي لم أجدْ زوجةً تفرحني. يا للعنة!

كانت الشَّمسُ تشتدُّ أوارًا، وقيظ الظهيرة. فنهضنا وعُدنا. أمَّا هو فقد عاد إلى كوخه، وأمَّا أنا فقد عدتُ إلى جبلي. إلى تلك الهضبة الظَّليلة المنسيَّة عند السَّفح.

* * *

أقبلَ العيدُ وأيَّام القبطان الرَّتيبة تشي بشـــيخوخةٍ لم تكـــن في الحسبان. الجميع تخلَّى عنه، زوجتاه وأولاده. إلاَّ نجوى شقيقة الرَّاحلة سلوى. تزوره بين الحين والآخر، كما تزور العصافيرُ قبرًا مهجـــورًا. لم أشأ أن أدعه يقضي العيد وحيدًا، فزُرْتُه بعد الصَّلاة وعانقتُه. قلتُ تعالَ نمشي معًا في الأسواق مهلِّلين مكبِّرين كما كان يفعل أجـــدادنا وهم في طريقهم إلى المسجد. أرسلَ زفرةً وقال: حنَّـــتْ نفســـي إلى سفوحكم. جاءتْ روحي إلى جبالكم. قلبـــي يصـــلِّي متَّجهًـــا إلى قِبلته الخضراء. حيث تستريح قريتكم على ذاك المنحنى الشَّامخ. تعال نعيِّد معًا في الغابات والسُّفوح والأودية. إنَّ جبالكم بحرٌ آخر، زاخرٌ بأمواجه، لانهائيُّ الزُّرقة والجمال.

هتفتُ قائلاً لبَّيكَ يا قبطان. لبَّيكِ أيَّتها السَّماء الزَّرقاء، أيُّهـــا البحرُ العالي. قدْتُ السَّيَّارة بسرور غامر. وكأنَّها مركبـــةٌ فضـــائيَّة. أخرج القبطان ذراعيه إلى الهواء وكأنَّهما جناحان يصفقان. قلتُ له هذه السيَّارة الرُّباعيَّة الدَّفع، هي سفينتي، وأنا ربَّـــان ســـفينة البَـــرِّ. سنتبادل الأدوار. ستكونُ رفيقي وأنا السِّـــندبادُ الـــبرِّيُّ. ضـــحك

القبطان حتَّى دمعت عيناه. قال انطلقْ يا أستاذ علـــى بَرَكَـــة الله أو الشيطان. أحبُّ أن أقطِف النُّجوم التي تتدلَّى كالعناقيد على سطوح منازلكم.

تسلَّقنا جبل المكمل ثمَّ ترجَّلنا من السَّيَّارة، ووقفنا معًا ننظرُ من إحدى قنَنه إلى قرى الضِّنِّيَّة السَّاحرة وأوديتها وتلالها. رفع القبطـــان سبَّابته هاتفًا: أشهد أن لا إله إلا أنتَ. جنَّة من تحتها الأنهار، تـــلال تتباهى كما تتباهى المرأة بصدرها العارم. أودية لم تحلم الجنُّ بمثلـــها ولا الإنس. أنهار تتدفَّق لبنًا وعسلاً. قرى تشمخ بقراميدها، ومـــدى مفتوح على الله. على اللانهائيِّ الأزرق.

قلت نعم هذه الجنَّة الأرضيَّة. سهولٌ مخطَّطةٌ بالأخضر والأصفر، قممٌ مكسوَّةٌ بأشجار اللزَّاب والشُّـــوح والأرز. بريصـــا، مـــربِّين، قرعنيتا... أسماء مغمورة في هذا العالم. ولكنَّها هبطتْ كالجبال مـــن الجنَّة السماويَّة إلى الأرض.

رفع القبطانُ ذراعيه، اللهمَّ اجعل جنَّتي هنا. أيَّتـــها الملائكـــة اقتربوا، وافْرِدوا أجنحتكم على هذه الهضاب.

في هذه اللحظة، كان الضَّبابُ الشهيُّ يصعدُ من الأوديـــة إلى القمم وكأنَّه لهاث الله. ما أروع الضَّبابَ يغمر عنقـــكَ ورأسَـــك، فيرشح النَّدى من فمكَ وشعركَ. وفيما كان رأسُ القبطان يســـبح في هذا البخار، هتفَ بـــي: اقعدْ بجانبـــي على الصَّخرة، ومُدَّ رجليك. ها هو البحرُ تحتنا، على مرمى ابتسامة. فلـــتكن أقـــدامنا في المـــاء، ورؤوسنا في السَّماء. ولنسبحْ في هذا الملكوت مع الأنبياء والقدِّيسين.

ثمَّ انطلقنا صعودًا صوبَ القرنة السَّوداء. أعلى قمة في الجبـــل. دخلنا غابة أرزٍ صغيرة، ثم عبرنا مرتفعاتٍ كالصَّحارى. وواحـــاتٍ

يسكنها الرُّعيان. هنا بيوتٌ حجريَّة لاصقةٌ بالصُّخور، يتَّخذونها منازلَ وحظائرَ، وذا راعٍ يقودُ قطيعَه تحت الشَّمسِ الواطئة، غيرَ مبالٍ بأشعَّتها. ثمَّ وجدنا فتى ينامُ في العراء، ملتصقًا بالأرض، ووجهه الأسمر يحتفلُ بالنُّور. هو لا يعرف ما يدور حوله في هذا العالم. لا يعرف شيئًا اسمُه الحرب. التِّكنولوجيا. الأقمار الفضائيَّة. أجهزة الاتِّصال والتَّواصل... وكلٌّ هذه المفردات التَّافِهة. هو يعرف السهلَ والجبلَ والغنمَ والذئبَ والثلجَ والشمسَ والريحَ.

ثمَّ انطلقنا فوجدنا خروفًا يجلسُ على مرتفع صخريٍّ ولا يتحرَّك. وكأنَّه تمثالٌ حيٌّ. صاحَ القبطان أطفئ المحرِّك. وراحَ يتأمَّل في شغفٍ وقسوةٍ هذا الخروفَ المستوحِد. لعلَّه مريضٌ منبوذٌ أو لعلَّه أضاع القطيع. أو لعلَّه ينتظِر ذئبًا جائعًا ليأكله. قلت لعلَّه هبط من السَّماء مثل كبش إبراهيم. قال القبطانُ هذا الخروف هو أنا. ما تراه أيُّها الأستاذ ليسَ مجرَّد صُدفة. إنَّها إشارة إلهيَّة في طريقنا. الخروف يتربَّص بالقدر ولا يتربَّص به قدرُه. كائن هجرتْه أسرتُه، وتخلَّى عنه قطيعه. الخروفُ هذا هو قرباني. إنَّ لحمه محرَّمٌ على الذئاب. وإنَّ ثغاءه المظلوم لأقوى من أنياب الوحوش الأرضيَّة والسماويَّة.

ومضَينا صعدًا حتى وصلنا الذُّروة. نحن على علوٍّ ثلاثة آلاف وثمانٍ وثمانين مترًا. مددتُ يدي ورحتُ أداعِب أردافَ السَّماء بحنانٍ وحُبٍّ. وأمَّا صديقي فقد نطحها برأسه وصاح: تعالَ أيُّها الموت الجبان، أيُّها القبطانُ العجوز، إنَّك لن تجرؤ عليَّ. اهبطي يا طيورَ السَّماء، مرحى يا جبريل، مرحى يا ميخائيل. تعالوا نلعب ونلهو ونتزلج.

ثم وجدنا في طريقنا حجَلَةً تمشي أمام صغارها. فوثبَ القبطانُ من السَّيَّارة وراح يتدحرج كالحجل على الأرض، فتحوَّلت الحجالُ إلى حجارة.

وتابعنا السير فحلّق من فوقنا زوجان من الغُراب يتناكحان. قال ليتني هذا الغراب الذي يفرد جناحيه سعيدًا وقد وجدَ زوجةً وفيَّة في هذا الجبل المنعزل. ودلفنا إلى السَّفح، من منعطفٍ إلى منعطف، ومن شفيرٍ إلى شفير، حتى بلغنا النَّبع المتفجِّر في السَّفح. ورحنا نعبُّ الماء كالجمال القادمة من الصحراء وغسلنا وجوهنا ورؤوسنا. وتوضَّأنا للصلاة. فالنَّبع يصلِّي وهو يفور، والشَّجرة تصلِّي وهي واقفة. ونحن نعبُّ الهواء ونغمض أعيننا. هذه صلاتنا. دعِ البشر الذين يصلُّون بين الجدران. نحن يا أستاذ هذا المدى الواسع كنيستنا، وهذه الصُّخور الشامخة مسجدُنا.

ثم وجدنا مزارعًا يحصد القمح. وعصافيرُ الشَّعير تطير حوله مرفرفةً، والهواء المنعش يبلِّل وجوهَنا ويحرِّك أثوابَنا، ملاطفًا ومُداعبًا. دعانا المزارع إلى بيته الصَّغير فأحضرَ لنا الغداء، وامرأته عابسة تثرثر كلامًا غير مفهوم. قلنا ما شأن امرأتك هل أزعجها كرمك ولم يرقْ لها ضيوفك. قال سأحكي لكم حكايةً عن جدِّي إسماعيل رحمه الله. كان النَّبيُّ نوح يصنع السَّفينة وقومه يهزأون به. وكانت له ابنة وحيدة. قال سأزوِّجها لمن يساعدني في صنع السَّفينة. فقبلَ عرضَه ثلاثة شبَّان. عندئذٍ طلب من ربِّه أن يساعدَه فألهمه أن يسقي بقرته وكلبته من ماء النَّبع القريب. فتحوَّلتا إلى امرأتين. وهكذا أصبح له ثلاثة أصهار. وبعد أن أتمَّ صنع السَّفينة جاء الطُّوفان. ثمَّ انحسرَ الماء فأراد نوح أن يعرف ابنته من بين النِّساء الثَّلاث. فأتى صهره الأوَّل

وقال حدِّثني عن زوجتك. قال إنَّها حسَنَة المعشر ولكنَّها إذا حرَّكتْ إصبعَها راحت تهرش وتلهث. فعرفَ نوح أنَّها الكلبة. ثمَّ أتى صهره الثاني وقال حدِّثني عن زوجتك. فقال إنَّها مطيعة وصبورة ولكنَّها إذا وضعتْ رأسَها في الأرض فلا يستطيع أحدٌ أن يرفعَه. فعرف أنَّها البقرة. وأدرك أنَّ الثالثة هي ابنته.

ثمَّ أشعل المزارع لفافة تبغٍ مبلَّلةٍ بريقه، وأضاف إنَّ النساءَ ثلاثة أنواع. وزوجتي النَّابحة هذه كلبة مجرَّدة من الوفاء. فضحكنا وقام القبطان وقبَّل رأسه وهمسَ في أذنه: ليست هناك امرأة يا عزيزي سوى ابنة نوح. هذا إذا كان لسيِّدنا ابنة لم تشرب من النبع كما زعمَ جَدُّك.

ودَّعْنا المزارع وتركنا السَّيَّارة تمشي كحصانٍ جامحٍ، لندركَ اللزَّابة الكبيرة في الحقول البكر، حيث يجبُ أن نتناول العشاء عند موعد الغروب.

وثب القبطان مهرولاً إلى النَّبع الصغير المترقرق تحت الشجرة، وراح يعبُّ الماءَ بأناةٍ ونَهَمٍ كالبغل. قلتُ له هنيئًا مريئًا أيُّها الحصانُ البرِّيُّ. الجردُ يا سيِّدي يطيلُ العمر. فالهواء يدخلُ المناطقَ النَّائية في دماغك. والماء النَّقي يروي الصَّحارى المجهولةَ في روحك. وأمَّا هذه النار التي نشوي عليها اللحوم فتطهِّرُك. وفتحَ القبطانُ منخريه يتنشَّقُ هذه الرَّائحةَ الطَّيِّبة. كأنَّه يمتصُّ كلَّ ما في سماء الشَّرق من أوكسيجين. تبًا لك أيُّها الإنسان، كيف تعودُ في لحظةٍ حيوانًا برِّيًا شاهِرًا مخالبَك وأنيابَك.

قلتُ له: عليكَ أن تتعوَّدَ الحياةَ في هذا العراء أيُّها الحوت البحريُّ. لن تستطيعَ الصمودَ في هذه الجبال، فإن حراشفكَ تتحرَّقُ شوقًا إلى الماء المالح.

تناولنا الطعامَ وعرفنا لذّة المضغ وكأنَّنا نأكلُ لأوَّل مرَّة. وجلسنا مسندين ظهرَينا إلى جذع اللزَّابة المطلّة بشموخٍ وخفرٍ على الوادي. قلتُ إنَّ الإنسانَ يعودُ طبيعيًا عندما يأتي إلى هنا. الإنسانُ في المدينة يقتلُ طبيعتَه. أمَّا القبطان فجلسَ يحدِّق بخشوعٍ في النَّار المشتعلة وسط الظَّلام. قالَ لم أجدْ في حياتي مشهدًا يضاهي بجماله وسحره وخشوعه مشهدَ الحطب المشتعِل واللهيب الأزرق والأحمر. و لم أشمَّ رائحةً أطيبَ من رائحة الأعشاب المحترقة. إنَّ النَّار الأزليَّة التي يهدِّدونا بها مجرَّد وعيد. والجنَّة الأبديَّة مجرَّد وعد. إنَّ الربَّ الطيِّبَ لن يشويَنا كالفراخ أو الأسماك الطَّازجة أو الجديان المذبوحة. كلاَّ. الجنَّة أن يجلسَ الإنسانُ في حضنِ شجرةٍ ويتأمَّل الحطبَ المشتعِل المضيء. وأمَّا المذنبُ فيمسكُهُ الرَّبُّ من أذنيه كما يمسِكُ الأستاذ تلميذًا سيِّء الحظِّ.

ثم نهض صارخًا: تعالَ نرقص ونخاصر الأشجار. بالرَّقص يا أستاذي العزيز نحوِّل اللحمَ الذي ازدَرَدْناه إلى إنسان.

رقصنا حول النَّار واكتشفنا معنى الاحتفاء بالأوثان، وأخذَ الدِّفء يسري في عروقنا. هذه معجزةُ النَّار والرَّقص حولها.

وفي حُلكة الليل، امتلأت السَّماءُ بالنُّجوم، فأمسكني القبطان من زندي، ومشينا بخشوعٍ معًا تحت النُّجوم كمن يمشي في جنازة عزيز.

* * *

فاجأني القبطان، ونحن نتناولَ الشايَ الأخضـرَ بالنعنـاع، في المقهى المحاذي للبحر، بقوله: ينبغي لي أن أزورَ قبرَها. إنَّها هناك. لم تزل تنام تحت ظلال السِّنديان.

تحت العشب تنام منذ ثلاثين عامًا. إنَّ روحي تهفو إلى معانقـة الأعشاب الطفيليَّة، ولثم الحجر الذي يغطي وحشتَها الباردة. شردتْ عيناي في الأفق الأزرق وهو يحدِّثني. وسمعتُ صوتًا في داخلي يقول: يظلُّ الإنسان وثنيًا في جوهره، مهما حاولتِ الأديان طمـسَ هـذه الحقيقة.

ذات سبت، صعدنا معًا في سيَّارتي. قلتُ له ممازحًـا سـنفرَحُ بيومنا هذا يا خروفَ العيد. في إشارة خفيَّة إلى ذاك الخروف الـذي وجدناه في مشوارنا الماضي. لكنَّ الريِّس لم يجبْ وظلَّ صامتًا، وعرى الشحوبُ وجهَه الأسمرَ الداكن. لعلَّه تخيَّل نفسَه ذاك الخروف لحظـة يضعون السِّكِّين على رقبته. وهم يهلِّلون باسم الله الأكبر.

قال لي بعد صمتٍ طويلٍ، يحزُّ في نفسي يـا أسـتاذ مشـهدُ الخروف المذبوح. وقد فصلوا رأسَه عن جسده، وقد أخرج لسانَه من

شدّة السُّكر بالألم. إن ذاكَ اللسان الخارج ملتويًا من فمه، ليهزأ بكلّ الآلهة والأرباب.

أردفتُ قائلاً: فما بالك بالرُّؤوس البشريَّة المقطوعة والمصوَّرة على الفيديو. ثمَّ يحملونها بأيديهم ضاحكين. قال بكيتُ كثيرًا على نفسي وعلى النَّاس وعلى الأعزاء الذين رحلوا. ولكنَّ الربَّ يا أستاذ يُشيح ببصره عن دموعي، وعن دموع الأطفال والبائسين. وفي غمرة الحديث، كان القبطان يتلفّت من خلال الزجاج، إلى البساتين والأودية، راثيًا لتلك الأوراق الصفراء والحمراء التي تتراكم على جانبيَ الطريق كدنانير مزيَّفة.

وعندما وصلنا إلى مقبرة القرية. ترجَّل القبطان من السيَّارة، وسار بخشوعٍ وأناةٍ، صوبَ ذاك القبر المهجور. وسِرْتُ إلى جانبه مطرقًا. واسترعى انتباهَنا رجلٌ رثُّ الثِّياب ينحني على قبرٍ هناك ويخاطبه. هو لا يتلو سُورة قرآنية بل يتلو نشيدَ رثاء شعري:

أمِّي

أنا ابنكِ الذي يسمُّونه المعتوه

هذه وردة قطفتُها لكِ من حديقة البيت

من الزَّهرة التي زرعتِها قبل رحيلك

هذه رائحتك في الوردة يا أمِّي

ليبكِ عليكِ الشجرُ يا أمِّي

ليبكِ عليكِ الحجرُ يا أمِّي

ليبكِ عليكِ الخروفُ الذي أطعمتِه الحشيش

والعجلُ الذي سقيتِه الماء

ليبكِ عليكِ الزَّهرُ المتفتِّح في الرَّبيع
والورقُ المتساقطُ في الخريف
سآتيكِ بكنَّةٍ وفيَّة يا أمِّي
وبحفيدٍ وحفيدة
أنا ابنكِ المنبوذُ يا أمِّي
أنا الذي ينامُ في قبو المسجد وحيدًا
من الليل حتَّى صلاة الفجر.

حين سمعتُ هذه الصلاةَ الهادرة من صوتٍ متهدِّج، عرفتُ الرَّجلَ الأربعينيَّ الذي يعدُّه النَّاسُ نصفَ مجنون. وأدركتُ في تلك اللحظة أنَّه أكثر حكمةً من الجميع.

دنا منه القبطان وحيَّاه فعَرَفَه للتوِّ. أنتَ القبطان مصطفى وابنتكَ تنام هنا قرب أمِّي. إنها تنتظِر زيارتك من سنين.

قال القبطان، وهو يمسَح عَبَراته، إنَّ ابنتي واحدةٌ منكم. ليستْ غريبةً عن أهالي هذه القرية الطيِّبين. هي لا تشعُرُ بالوحشة ولا الغربة. بل تعيشُ مع أهلها في قريتكم السُّفليَّة تحت التُّراب. هي غصنٌ من هذه الشَّجرة المباركة التي تمتدُّ عميقًا في الأرض.

مرَّغَ القبطانُ جبينَه بالأعشاب، وأنفَه بالزهر. وأحسَّ أن ابنتَه تلثم ذاك الجبين، وتداعِبُ بيدها السَّمراء رأسَه المضرَّج بالشَّيب. غدًا غدًا يا ابنتي سأعود. وسنلتقي هنا في هذا المكان وإلى الأبد.

ثم نهضنا فأمسكتُ بذراعه ومشينا، تاركين الرَّجلَ الرَّثَّ الثِّياب يخاطِبُ أمه. وأحببتُ أن نعرِّجَ في طريق العودة على بيتِ

أحد الأصدقاء لتناول العشاء. ولكنَّ القبطان أبي كعادته وقال: عُدْ بـــي إلى الميناء يا صديقي. ليتني متُّ قبل أن أرى عروسي مكفَّنـــةً بثيابها البيضاء، ليتني متُّ مجهولاً في غياهـــب البحـــر، وتناتشـــتِ الأسماكُ جسدي إربًا إربًا. إنَّ البحرَ يا أستاذي حنونٌ وعميقٌ أكثر منا.

* * *

طوني واحدٌ من أخلص البحَّارة الذين شاركوني حلوَ السفر ومُرَّه. خلقه الله يا أستاذ قبيحًا. أنفٌ مخروطٌ كأفضل ما أنتجَتْه الحضارة اليونانيَّة على مرِّ القرون. وفمٌ مهترئٌ بلا أنياب وقامةٌ قصيرةٌ. لن أقول لكَ إنَّ شكله دميم ولكنَّه رائعٌ من الداخل. ولن أكذبَ كالنِّساء اللواتي يزعمنَ أن الجمالَ هو جمالُ الروح، وتراهنَّ يبالغنَ في التزيُّن والتبرُّج. فهذه تقصُّ أنفَها الطويل، وتلك تنفخ صدرَها أو شفتَيها أو مؤخِّرها. بل أقول إنِّي تعوَّدتُ على دمامته فأصبحتْ جزءًا لا يتجزَّأ من فطور الصَّباح ورذاذ الأمواج وهدير العُباب وخفق الأشرعة.

ولأنَّ طوني كان يدرك بؤسَ منظره، كان يروِّح عن نفسه برواية النِّكات والقفشات المضحكة. وكثيرًا ما يجعل نفسَه موضعًا للسُّخرية. قاطعًا الطريق على كلِّ من يستنكر وجودَه على هذه الأرض.

قال لي ذات يوم، أنا لستُ مضطرًا لأحملَ هويَّتي أو بطاقتي الشخصيَّة. وجهي يا ريِّس هو هويَّتي. أنفي الضخم علامتي الفارقة.

قِصَرُ قامتي هو رأسمالي الخاص. أعتقدُ أنَّ الله يا صديقي لن يحاسبَني على أخطائي، وذنوبي الكثيرة مثل شَعر القرد. لن يكونَ لديه قدرةٌ على النَّظر في وجهي يوم القيامة، وسوف يسأل الملائكةَ من هذا، فيجيبُ أشقاهم هو عبدُك الدميمُ طوني، هو قزم القبطان السَّافل. سينظرُ الرَّبُّ شزرًا إليَّ، ويمسكُ بإحدى أذنيَّ، ويركلني ركلةً صغيرةً على قفاي، ويصرخَ بهم: أدخلوه الجنَّة.

وتابع القبطان قائلاً: طوني، يا أستاذي العزيز، هو من أحبِّ رفاقي إليَّ. ظريفٌ خفيف، وفيٌّ طيِّب. مسيحيٌّ الأخلاق فعلاً، وإن كانَ لا يذهبُ إلى القُدَّاسِ يوم الأحد.

لِطوني هذا، زوجة وولدان جميلان. لا تعجبْ فالقردة تلِدُ الوردة كما يقول المثل. واتَّفقَ أن طوني سافر معي سفرةً طويلة، إذ غابَ عن أهله أحد عشر شهرًا. وعندما عُدنا من سفرنا، فوجئ بأنَّ زوجته حاملٌ في شهرها السابع. قال يا جانيت أنَّى لكِ هذا. قالت هو من عند الجِنِّ. السَّافلة يا أستاذ، حبلتْ من عابر سبيل وادَّعتْ أنه جنِّيٌّ. أخذتُ أضحك. وقلتُ له مبارك. سيأتيك هذا الولد العفريتُ بكنوز سُليمان.

عندما وضعتِ المرأةُ حملَها، تبيَّنَ أن المولودَ الجديدَ من البشر. وإن كان يحملُ إجَاصةً لا رأسًا. وأخذ ينمو شيئًا فشيئًا. وحينَ اكتملت ملامحه بدا بين إخوته، كالخروف الأسود بين الخِراف. وكان موضِعَ اهتمامٍ خاصٍّ من أمه. أعتقِدُ أن طوني أدركَ أن هذا اللقيطَ لا يشبهه في شيء. فلم تظهر في وجهه تلك العلامة الفارقة أعني الأنف الكريه.

قال طوني إنَّ امرأته حملتْ منه قبل أن يسافرَ من دون أن تدري. واخترعتْ قِصَّة الجنِّيِّ لأنَّها تخيَّلتْ نفسَها بين ذراعين من نُور.

قلتُ للقبطان معلِّقًا، هذه هي المرأة. تركِّبُ للرَّجل قرونًا وتجعله يفتخر بها. قال هوِّن عليك لا تظلمِ النِّساءَ يا صاحبـــي.

- لماذا تدافعُ عنهنَّ وأنتَ أكثرُ مَن ذاقَ مرارهنَّ.
- إنَّ مشكلتَك يا أستاذ أنَّ رأسَكَ متَّسخٌ بالحبر. لِتفهمَ الحياةَ عليكَ أن تتَّسخَ بالعَرَق والملح. إنَّ الله عندما خلق النَّاسَ مدَّ يديه إلى التراب والماء. فعجنَ عجينًا مختلفًا مــن النِّســاء والرِّجال. كلٌّ واحد، وكلٌّ واحدة، مختلف عــن الآخــر. ليسَ بالأنف الطَّويل أو القامة القصيرة فقط. بل بالطِّبــاع والمعدن. هذا فظٌّ وهذه فظَّةٌ. هذا رقيق وهذه رقيقة. هــذا نمرود وهذا مهبول. هذه وردة وهذه قردة...
- ولكنَّ المرأة مخلوق ناقص.

انفجرَ القبطانُ ضاحكًا وأجاب:

- أجل أجل ينقصُها ذاك الشَّيء الذي ينتفخ بين ساقيك.
- هي شهوانيَّة جدًا. لا تفكِّر إلا بغريزها.
- كلاَّ يا أستاذ. المرأة بارعةٌ في الحساب أكثر من الرَّجــل. أنت مثلاً، حشوتَ دماغكَ بالكتب وأصــبحتَ عبقريًــا. ومع ذلك، تُصاب بالدُّوار والقُشعريرة عندما تــرى نهــدًا مشرئبًا وراء قميص. أمَّا هي السَّافلة فلا تــدعُ شــهوتَها تغلِبُ عقلَها. إنَّ مصلحتَها فوق كل اعتبار.
- إنَّ صديقي نيتشه، يقول إنَّ المرأة لغزٌ ولا مفتــاحَ لــه إلا الحَبَل. أفهمت؟ الفَرْج الملعون.
- وماذا يشتغلُ صديقك هذا. أظنُّ أنَّه لم يعشق امــرأة مــن قبل. من الطَّبيعيِّ، يا أستاذي العظيم، أن تتمنَّى المرأةُ إنجابَ

طفل من الرَّجل الذي تُحبُّ. وإذا اضُطرَّتْ من أيِّ رجل. انظرْ إلى عالم الحيوان.

القطُّ ينطُّ على القِطَّة. ولكنها هي التي تربِّي القطط الصغيرة وترعاها. الديكُ ينطُّ على الدَّجاجة، ويغرزُ منقارَه في رأسها، ثم يلتفِتُ إلى دجاجةٍ أخرى ولكنَّ الدَّجاجةَ الذَّكيَّة هي التي تحضن البيضَ وتدافِعُ بشراسةٍ عن صيصانها. ذكَرُ النحل...

- اليعسوب.
- لا يهمُّ اسمُه. يطارد ملكة النَّحل ويلقِّحهُا، ثم يموتُ فورًا.
- لا تنسَ يا قبطان أنثى العنكبوت التي تلتهِمُ ذَكَرَها خلال التَّزاوج.
- نعم يستحقُّ هذا الأحمقُ ذلك.
- لماذا؟
- لولا المرأةُ يا أستاذ، لانتهتِ الحياةُ على هذا الكوكب.

أضاف القبطان وهو يمسَحُ أنفَه بكمِّه: الرجلُ غالبًا هو من يُفسد المرأة. هي عادةً تكتفي بفحلٍ واحد. ولكنَّ الثورَ لا يكتفي ببقرةٍ واحدة. وقد يدفعُها حبُّ الانتقام إلى الخيانة.

- هي خائنةٌ بطبعها منذ أمِّنا حوَّاء.
- الرَّجلُ هو المريض. وهي المصابة بالعدوى. ومع ذلك، أقول لك، إنَّك لا تستطيعُ أن تسوقَ النَّاس بعصا واحدة. اعلمْ، يا أستاذ، أنَّ المرأةَ عندما تفتحُ ساقَيها لأوَّل مرَّة، قد تَجدُ صعوبةً كبيرةً. ولكنَّ الأمر يصبح عاديًا في المرَّات اللاحقة. المرأة كالعجينة، لا تتأثَّر إذا غرزنا فيها الدَّبابيس.

بل أقول لك إنَّ المرأة نبعٌ لا ينضَب، ويمكن لأيِّ رجلٍ أن يأخذَ غَرفَةً بيدِه.

- أنتَ لا تجِدُ مشكلةً في أن تنامَ بنتكَ أو أختكَ أو زوجتكَ مع من تشاء.
- لا تعقِّد الأمورَ يا أستاذ. دعِ الحياةَ تجري على هواها. دعِ البراعمَ تفتح قلبَها للرِّيح.
- لا داعي للخيانة إذن. ما دام كلُّ شيء مُباحًا.
- اخترْ أنتَ ما يناسبُك، ولا تفرضْ رأيكَ على سِواك. كُنْ حُرًا من الداخل، ولا تأبه لما يقولُ النَّاسُ عنك.
- أنتَ تعطي المرأةَ صكَّ براءةٍ من خطايانا يا ريِّس.
- لا. لم أقصِدْ ذلك. إنَّ لها ما لنا من حقوق، وعليها ما علينا من واجبات. ولكن عليكَ أن تحبَّ المرأة لا أن تفهمَها يا عزيزي. انظرْ ذَكَر الحمام كيف يَفرِد جناحَيه من حولها ويلوي رأسه، ويدور ويدور ويسجع. انظرْ إلى الحمار كيف ينهق وإلى الحصان كيف يحمحِم. وإلى الكلب كيف يهزُّ ذيلَه.
- هل تعلم أيُّها القبطان، أنَّ الأسطورة اليونانيَّة زعمتْ أنَّ المرأةَ هي من فتح صندوق الشُّرور فانتشرتْ في العالم.
- لا يا صديقي. الشَّيطانُ هو الذي فتحَ الصُّندوق. ولكنَّ الرجلَ اتَّهمَ المسكينةَ بذلك.
- وماذا تجيدُ المرأةُ غيرَ الكيدِ والإيقاع بالرَّجل والنَّميمة والثَّرثرة وحُبِّ الظهور.

- أسفي عليك. أنتَ الذي لوَّثَ دماغَه بالحبر. من صنعكَ أيُّها العبقريُّ. من اخترعكَ أيُّها الطفل الذي طرَّ شارباه وانتفختْ أوداجُه. حَسْبُ المرأة معجزة اختراعِ الأطفال. لا يهمُّ إن كان ذلكَ بأمرٍ من الله، أم بوحيٍ من الشيطان.
- إن الشيطانَ يوسوسُ لهنَّ. وهُنَّ يوسوسنَ لنا. ونحن الرِّجال الضحايا ننفُخُ ريشَنا زهوًا وغرورًا. ولكننا ننفِّذُ مشيئتهنَّ.
- أنتَ تجِيدُ يا أستاذ صفَّ الكلام فقط. إنَّما لن تكونَ حضاريًا ما لم تحترمِ المرأة. حتَّى السافلةُ يا عزيزي تستحقُّ الاحترام.

كانت لي جَدَّة يا أستاذ، فاقتِ التِّسعين. كلَّما جئتُ لأصافحَها وضعتُ إصبعي الوسطى في باطنِ كفِّها. فتنفجرُ ضاحكة وتصيحُ يا أزعر. وأنا ألاحِظُ بوضوح احمرارَ خدَّيها من السُّرور.

هِيَ خُلِقتْ للعطفِ طفلةً، وللغنجِ صَبيَّةً، وللرعاية أمًا، وللبِرِّ عجوزًا. وهي قبل كلِّ شيء خُلِقتْ للحبِّ.

لم ينتظرِ القبطانُ جوابًا منِّي، فنهضَ وقال: هيَّا يا عزيزي إلى الدَّفن. إن جارَنا الحاج مروان ذهبَ إلى السَّماء.

* * *

مات الحاج مروان مِيتةً عاديَّة. كما تموتُ ورقةٌ صفراء علـــى العشب أو كما ينفُقُ تيسٌ برِّيٌّ. ميتةٌ تتَّفقُ وأحكام الطبيعة. ولكـــنَّ الموتَ في أحضان الخطر أشهى وأجمل. الخطرُ يمنحُ الحيـــاةَ معناهـــا. صحيحٌ أنَّني شجاعٌ وأعشقُ المغامرة، ولكنَّني لا أتهوَّرُ يـــا أســـتاذي العزيز.

كان البابورُ "الحسن" مثقلاً بالأغنام، في رحلةٍ بحريَّة من بيروت إلى طرابلس الغرب، وكان يقودُهُ صديقي القبطان ماجد. أما أنـــا فكنـــتُ ميكانيكيَّ الباخرة. أقلع البابور من مرفأ بيروت إلى جزيرة قبرص ثمَّ إلى جزيرة كريت التي تشبه صخرة مستطيلة في وسط البحر. ومن هنـــاك اتَّجهنا صوب الشواطئ الليبيَّة. ودخلنا الخطرَ مقابل خليج سدرة. هبَّتْ رياحُ الخليج وأمواجُه العاتية على البابور وأطاحتْه. الأمواج تسقطُ علينا كالجبال أو البنايات الشَّاهقة. كان سقفُ العنبر مفتوحًا. والأغنامُ تواجه قدَرَها العاصف. تمايل البابور واحتكَّتِ الماشيةُ ببعضها البعض، فتطـــايرَ عنها الصُّوف كالقطن المندوف، واختنق ثغاؤها فلا شـــيء إلا عـــواءُ الأمواج. وقفتُ أعوي من شدَّة الخوف والفرح في آن. صدِّقني يا أستاذ

كم اشتهيتُ الموتَ في هذه الرِّحلة. وكم اشتهيتُ أن تتقاذفَ الأمواجُ جثَّتي بين الجُزُر، ثم يدفعُها التَّيَّار إلى جزيرة قلبي.

ظلَّ الخليجُ مسعورًا ثلاثة أيَّام، فألفَينا أنفسَنا مقابل الشَّواطئ الإيطاليَّة. وعندما هدأ البحرُ يمَّمنا شطرَ إفريقيا ونجونا. واستقبلنا صاحِبُ الماشية في مرفأ طرابلس وهو يمازِجُنا. الحمد لله على سلامتكم. تمنَّيتُ أن يغرقَ البابور بكم وبالماشية لأربحَ الصَّفقة. عندئذٍ هتفنا جميعًا: الله مع العواجيز.

ثم أمر بذبح أحدَ عشرَ خروفًا. عن كل واحدٍ منا قربان. ورأينا الدِّماءَ البريئةَ تُسفك. أليسَ القتلُ يا أستاذ هو القتل، سواءً للإنسانِ أو للحيوان.

- الدَّمُ يدفعُ الدَّمَ يا قبطان. والخروفُ هديَّةُ الله إلى البشر، لدفعِ الأذى عنهم.
- أنا لا أفهم الحكمة الإلهيَّة هذه. ولكني أحسُّ بالسِّكِّين تلامِسُ رقبتي عندما يرتدونَ مآزرَهم المضرَّجة بالدِّماء. ثم أردف قائلاً: دعنا من هذا الجدل العقيم. ثم نهضَ وأحضرَ خارطةَ البحر الأبيض المتوسِّط. وأخذَ يُشيرُ بإصبعه إلى الخلجان الغدَّارة: خليج العريضة، خليج السُّويديَّة في لواء إسكندرون حيث تصبُّ مياه نهر العاصي، خليجُ حيفا، خليج سدرة "سِرت"...

يجب أن يتعلَّم الإنسانُ مواجهةَ الأخطار. عندما يعصفُ الخليج، أقودُ الباخرة بمحاذاته، وكأنِّي أكوِّره بيدي، فتكون الرِّياحُ ورائي لا أمامي. أغيِّرُ المسارَ فأنطلِقُ من بيروت إلى حيفا مرورًا ببور سعيد وبنغازي وسِرت ومصراتة وصولاً إلى طرابلس الغرب.

هكذا أروِّضُ البحرَ وعواصفَه، وأروِّض الوحشَ الذي يــزأرُ بــين جنبيَّ.

في رحلةٍ من اللاذقيَّة إلى الإسكندريَّة، تعطَّل البابورُ وسط البحر بالقرب من قبرص. الماكينة وقفتْ. فشــلتُ في محاولــة إصــلاحها بمساعدة الطَّاقم.

وكان الهواء يسوقُ المركب من دون استئذان ويقذف به وفق هواه. سبعة أيَّام والريح التي سخَّرها الله لا تهدأ. وجدنا أنفسنا على شاطئ دمياط. سبرتُ الماء فإذا نحن على عمق ستة أمتــار. هــل تصدِّق هذه المعجزة يا أستاذ. الرَّيح تجري حيث تتَّجــه بوصــلة القلب. جاء المصريُّ زكريًّا ليصلح الماكينة فَلَمْ يوفَّق. تدَّخلتُ أنــا المعتدُّ بذكائي ومهارتي صارخًا به: بُصْ يا زكُّور كيــف أجعــلُ الماكينة تشتغل. وانطلق البابور يمخرُ المياه فوصلنا إلى الإسكندريَّة. رأيتُ بروجَها الشَّامخة مثل قرنَي الإسكندر. ورأيتُ ابتسامةَ وكيلنا الحاجِّ عبد العزيز رحمه الله. ثم أقلعتْ سفينتي محمَّلةً بالبصل باتِّجاه بيروت. فتعطَّلتِ الماكينة من جديد مقابل شاطئ حيفــا. ناديــتُ القباطِنة فلم يسعفوني. أحدهم وصلني هاتفيًا بإسرائيل، فاشــترطوا مبلغ خمسين ألف دولار لقاءَ مساعدتي. فاستفتيتُ قلبــي وعكفتُ على إصلاح الآلة. أصبح المركبُ يمشي ساعتين ثمَّ يتوقَّــفُ أربــع ساعات. ثمَّ ينطلق من جديد. وهكذا قطعنا ستَّة أميال. وإزاءَ مرفأ بيروت راح المركبُ يتهادى ببطء مثل راقصةٍ شرقيَّة. في بــيروت أصلح الميكانيكيُّ الآلة وأخرجَ منها شوالاً من الملح. إنَّ للشــيطان يا أستاذ جنودًا من ملح. أقسم لكَ، أنا السِّندباد البحــريُّ الــذي انتصر على الحوادث الطَّارئة، ونجح في كل امتحانات الحياة، إنِّي لم

أفشل إلاّ في حياتي الزوجيَّة. وكم أنا مزهوٌّ بهذا الفشل، فالسُّقوط تحت أقدام أمٍّ فريد انتصار.

* * *

اليومُ عيد. أنا في القرية. أشتهي الصلاةَ في جامعهـــا، حيـــث يحضُرُ الجميع بعد أن يستيقظوا على التَّهليـــل والتَّكـــبير. الأطفـــالُ يفرحون أكثر، وأنا أجدُ متعةً في عناق القرويين وتهنئتهم. أمَّا صديقي القبطان فلا يعرف شيئًا عن هذه المتع الصَّغيرة. إنَّه لا يذهبُ لـــيرى أحدًا في جامع أو بيت. هو غريبٌ في هذه المدينة التي تجذبُ الغربـــاء إليها كالمغناطيس. مستأنسًا بأشباح الماضي، بالقطَّة الصفراء، وطيور اليمام التي تتهادى على الرصيف تحت أشعَّة الشَّمس. لم يزُرْه أولادُه ولا امرأته أمُّ فريد. وحدها نجوى شقيقة المرحومة سلوى تزوره بين الحين والآخر. لا يشتهي عناقَه ولدٌ ولا حفيدٌ ولا امرأةٌ. الكلُّ تخلَّوا عنه. النَّاس يحبُّونه وعائلته الصَّغيرة تَنبُذه. ما أجمل أن يمـــوت وهـــو مستوٍ على الكرسيِّ بكامل أبَّهته وأناقته. ميتة شريفة تنقذه من مصيره المجهول حيث يمكنُ أن يُحتَضرَ وحيدًا مثل بعير أجرب.

اتَّصلَ بـــي لأزورَه. أليس العيدُ ثلاثة أيامٍ. وجدتُه يقشِّر الثوم. لكنه تاقَ إلى البَوح والفضفضة. أشرقتْ وجنتاه حين رآني. وراحت دمعةٌ تترقرق في مقلته اليمنى.

عندما كنتُ صغيرًا يا أستاذي العزيز، كنتُ أحلُمُ بدرَّاجةٍ ملوَّنة. اليوم أحلُمُ بمن يقولُ لي: عيدٌ سعيدٌ. أحلُمُ بولدٍ من أولادي يصطحِبني إلى الغداء. سرقتْهُم أمُّهم منِّي. العاهرة! قلتُ له هيَّا إلى الشَّاطئ يا أخي. هناك نستطيعُ أن نتنفَّسَ ونستمتعَ بالشَّمس والرَّمل وهواءِ البحر والموج مجَّانًا.

وقفَ متكِّئًا عليَّ. ففي بُردَيه جسمٌ خائرٌ يوشكُ أن ينهدم. وضعَ رجليه كالعادة في الماء. صباحُ الخير أيُّها البحر. عيدٌ سعيدٌ أيَّتها الأمواج. أيَّتها الجزُرُ البعيدة المتوارية. أيَّتها السفُنُ المحطَّمة في قاع البحار مثل قلبي.

أحسَّ بالطُّمأنينة فالتفتَ إليَّ وقال: حياتي يا أستاذ جزيرة وسط البحر. تزورني الأفكارُ كالطُّيور الغريبة. والموجُ يلطِمُ صخوري العارية. والبحرُ يحاصرُني من كلِّ الجهات كالموت. آه لو أصبح غذاءً للطَّحالب والأعشاب الأرجوانيَّة. أزهرتُ باكرًا مثل شجرة اللوز، فقطفَتْني امرأة. وفارَ دمُ الشَّباب في عروقي فهتفتُ وغنَّيتُ لفلسطين واكتشفتُ متأخِّرًا أنَّ فلسطين، هذه الكلمة السِّحريَّة، مجرَّد صابونةٍ مُعطَّرةٍ يغسِلُ بها الحكَّام العرب أيديَهم الملطخَّة بالدِّماء. فتحتُ منخريَّ للهواء وقلبي، وعشتُ الحياةَ بكلِّ خليَّةٍ من خلاياي. بقسوةٍ ونشوةٍ عشتُها. وهذا أنا أهنِّئ نفسي كلَّ صباح عندما أدلِّكُ ذقني بالمعجون وأحلقُه. أصبحتُ قبطانًا قدَّ البحر. ولو أكمل الله مشوارَه معي، لتزوَّجتُ فتاةً بلديَّةً أو صبيةً من ضيعتِكم. كنتُ بَرًا بوالدَيَّ ولم أكن شقيًا كما يزعُم النَّاس. زارا بيتَ الله على حسابي. أعطفُ دائمًا على أولادي. ربَّما لم يكونوا أولادي. وحدَها العاهرةُ تعرف.

الآن في السَّبعين عدتُ طفلاً. أحتاجُ إلى زوجةٍ مثل أمِّي أتعلَّق بها حين تزورُ الجيران. زوجتي لا تلتفِتُ إليَّ. غدًا حين تُصبحُ شيخًا تعرف قيمةَ زوجتك. نصيحتي لكَ إن كنتُ أهلاً للنَّصيحة، أن تدلِّلَ زوجتَك وتكرمَها في شبابِك وعنفوانِك، لترعاكَ في ضعفِك وشيخوختِك.

في شبابي، جعلتُ المالَ نصبَ عيني. بالمال تستطيعُ أن تشتري السَّعادة، هكذا خمَّنتُ. تشتري امرأةً بل نساءً كثيرات. تشتري لبن العصفور إن شئت. تشتري الجماهيرَ وتجعلُ النَّاس ينبحُونَ لك في الانتخابات. ولكنَّ هناك أشياء لا تُشترى بالمال. صدِّقني لقد كنتُ في السِّجن سعيدًا أكثر من اليوم. أن ترى نورَ الشَّمسِ في زنزانتك لحظةٌ لا تساويها المليارات. ومتى سُجنتَ يا صديقي. عندئذٍ انتفضَ واتَّكأ عليَّ. ثم أصلحَ جلسته وقال: في مرسين. في سجن مرسين مكثتُ ستَّة عشر شهرًا. ومن قبلُ خبرتُ سجونَ مصر. مأمورُ السِّجن في مرسين شخصٌ كريمٌ. يُخرجني من الزنزانة الثَّامنة صباحًا ولا أعودُ حتى الثَّانية ظهرًا. نكزدرُ ونتغدَّى. بهديَّةٍ صغيرةٍ تشتري ساعاتٍ من الحرِّيَّة والسَّعادة. كانتْ تزورُني امرأتي وتوشوشُني بعيدًا من ضجَّة الزَّائرين المحتشدين وراء الشَّريط العازل. هل تصدِّقُ أنَّني كنتُ أخرجُ وأضاجعُ امرأتي ثمَّ أعودُ إلى السجن مثل حصانٍ عائدٍ من الحقل.

ذات يومٍ يا أستاذي العزيز، زارنا فجأةً المدَّعي العامَّ. غادر المأمورونَ قبلَ وصوله وتركوا مفاتيحَ السِّجن معي. وجدني أُعِدُّ الشَّاي. وسكبتُ له كأسًا. حين عادوا أصبحتْ وجوههم صفراءَ من الخوف. صرخ بهم مُوبِّخًا: لقد كان بوسعِ هذا الرَّجل أن يفتحَ

الأبوابَ ويُخرجَ المجرمينَ دُفعةً واحدة. ابتسمتُ يا أســتاذ ابتســامةَ الشَّامت المنتصِر.

- أنت تحدِّثني عن سجنٍ أم عن حديقةٍ للمشاغبين. أين منــه سجونُنا العربيَّة.

ربَّت القبطانُ على كتفي مبتسمًا. عرفتُها. لقد حُبستُ في مصرَ المحروسة. غرفةٌ بمائة وثمانين سنتيمترًا طولاً وعَرضًا. يتكَــدَّسُ فيهــا عشرة يأكلون ويشربون ويبولون ويخرأون في الأكياس...

ذات يومٍ رأيتُ الشَّمسَ، فهتفتُ أهلاً بالإله المعبود.

الحبسُ يكشِفُ لك النَّاس. من هو الصَّديقُ ومن هو العدوُّ. من يكرهُكَ ومن يحبُّكَ. حسبــي الآن أنا حُرٌّ. أعيش في سجنٍ جميــلٍ من الأوهام.

* * *

رائعةٌ هي الفوضى. هل يؤدِّي شارع بور سعيد إلى البحر أم إلى الموت أم إلى الحياة الأبديَّة. مطعم لبيع الفراريج إلى جانب بائع الحلويَّات العربيَّة وبائع الملابس. ثم بائع القهوة الواقفِ عند ناصيةِ الشَّارع. في الجهة المقابلة السَّمَّان والبقَّال وميكانيكيُّ السَّيَّارات والحلاَّق وبائع الخضار المتجوِّل والأحذية المعروضة على الرصيف ثمَّ ورشة البناء.

جميلٌ تعايشُ الأضداد. البيوتُ الشَّاحبة تسحرني، والبيوتُ المقفرة تعجُّ بالحياة أكثر.

القبطانُ العجوز القابع هناك يتأنَّى في رشفِ ما تبقَّى له من هواء في هذا العالم. يَعُدُّ النُّقودَ المعدنيَّة كطفلٍ خلال الأعياد. كيف تحوَّل هذا الحوت إلى فأرٍ يقرضُ ما تبقَّى من فُتات. هل الحوتُ أكثر سعادةً من الفأر؟

بين الحين والآخر، تثِبُ القطَّة إليه فترقدُ في حضنه. كأنَّها جدَّتُه الطَّيِّبة ترمُقه بعينينِ حانيتين.

كيف يستطيعُ الإنسانُ أن يتخلَّى عن العالم ليعيشَ في حيِّز صغيرٍ من المكان.

الجزُر والبحار والمرافئ والمدن والسُّفن والجبال والسُّهول أصبحتْ وراء ظهره. مكتفيًا بهذا المكان ذي الواجهة الحديديَّة المطليَّةِ بالأزرق. قِطَّةٌ ويمامٌ وحفنةٌ من أشعَّة الشَّمس. إنه يذكِّركَ بذاك الفيلسوف الإغريقيِّ ساكن البرميل، وهو يصرخ: تنحَّ قليلاً ولا تحجب الشَّمس.

هذا الصباحُ أفقتُ خفيفًا. فاتَّصلَ بي القبطانُ وأنا أبلِّلُ ذقني بالصَّابون هاتفًا: صباح الخير. أين أنتَ أيُّها الهارب. أملَلْتَ من صحبتي أمِ اشمأزَّ قلبكَ من رجلٍ يعيش أيَّامه الزَّائدة على عمره.

- حاشاكَ يا ريِّس. أنتَ كنزٌ لا ينالُ الغبارُ منه. فضلاً عن أنِّي مُعجَبٌ برأسِك الذي غمرَهُ الرماد.
- لا تمزحْ يا أستاذ. لا تمزحْ مع القدر ولا مع الشيخوخة. ولا تمازحْ رجلاً بينه وبين القبر بضعُ خطوات.
- قليلٌ من المزاح يعزِّينا يا سيِّدي الرُبَّان. المهم ما الذي دفعكَ إلى مكالمتي في هذا الصباح.
- لا بأس. أنا أنتظركَ في مقهى الشاطئ الأزرق. لا تتأخَّرْ. النَّرجيلةُ في انتظارك. والقهوةُ طبعًا.
- خمس دقائق مسافة الطريق.

كان القبطانُ على غير عادته، متورِّد الخدَّين، تلمعُ الضَّحكةُ في عينيه. وبدأَ في الحديثِ توًا. الليلة زارتني كيتي وزرتُها. سرنا معًا والثلجُ يخشخشُ تحت أقدامنا في أزقَّة "بورغاس" وأسواقِها. رأيتُ العاهراتِ المشرئبَّات الأعناق ينتظرنَ شابًا قليلَ الخبرة في أقبيتهنَّ. كانت كيتي مبتسمةً تلفُّ شالاً من الكشمير حول عنقها. والثلجُ ينهمرُ على شَعرها وكتفيها. أُقسِمُ إنِّي حسبتُها شجرةَ كرزٍ مغطاةً

بالزهور البيضاء. تسلَّقْتُ وإيَّاها الهضبةَ المشرفةَ على المدينة والبحر. وجدنا هناكَ كنيسةً تختفي بين الأشجار. قالتْ تعالَ ندخلها لنصلّي. تعالَ نُوقِدُ أمام المذبحِ شمعةَ حُبِّنا الأخيرة بأصابعنا العشرة.

صرختُ لا. سنصلّي في العراء. وسنمشي عُراةً في الثلج. إن أبانا السماويَّ سيكونُ في غاية السُّرور إذ نسجدُ له بين الأشجار أو نقفُ أمامه متعانقَين متأوِّهَين من البرد والحبِّ.

بعد قليلٍ لمحتُ نجمةً تسقطُ من السَّماء على رأس حبيبتي. فهرعتُ إلى باب الكنيسةِ ونظرتُ إلى الدَّاخل فرأيتُ شمعةً تلفظ أنفاسَها. أغمضتُ عينيَّ ثم أفقتُ.

هل تصدِّقُ يا أستاذ أنِّي تمنَّيتُ لو أقضي بقيَّة عمري شحَّاذًا في تلك المدينة أحمِلُ تحت إبطي كمنجةً وأدورُ من شارعٍ إلى شارع، ثم أجلسُ على الرصيف وقبَّعتي ملقاةٌ أمامي، وأنا أعزِفُ للمشاة الذين يملأون تلك القبَّعة نقودًا تافهة. ثمنًا لألحاني الفانية.

إنِّي أشعر يا صديقي أنَّ ساعتي قد حانتْ. أنا الغريبُ الذي لا مكانَ لي سوى عينيها. أنا الفقيرُ الذي لا يملكُ ثمنَ الكفن والقبر. أنا الغريبُ عن ضيعتكَ واعذرني إذا كنتُ صريحًا. سأظلُّ غريبًا حتَّى لو دُفنتُ بينكم.

- لا يا عزيز، أنتَ واحِدٌ منَّا وفينا. وستنامُ في أسفل هضبتِنا نومَكَ الأبديَّ إن شاء الله.
- لن أكونَ ضيفًا ثقيلاً على ضيعتِكَ التي أحببتُ وعلى ناسِها الطِّيِّبين. إن وصيَّتي لكَ أن تحرقَ جثتي وتذرو رمادي في هذا البحر الذي شاءتِ العِزَّةُ أن يكون قدري في الحياة والممات.

قلتُ وأنا أكفكِفُ عَبَراتي. إنه مجرَّدُ حُلمٍ أملاهُ عليكَ الشــوقُ إلى امرأةٍ بعيدة. لا تقلَقْ أنتَ ما زلتَ في صـــحَّةٍ طيِّبـــة. وفي هـــذه اللحظة أحضرَ لنا النادِلُ نرجيلتينِ وفنجانَي قهوة. فتوقَّف الحـــديثُ بيننا واستمرَّ الحوارُ عبرَ كركرةِ النَّراجيلِ وزفيرِ الدُّخان الذي حجبَ الدموع.

* * *

الحادي عشر من رمضان. عراكٌ وشجار أمام باب الكُشك. فركتُ عينيَّ ولم أصدِّقْ. امرأة طويلة بدينة، داكنة الاسمرار، تُمطِرُ الرجلَ العجوز بالشَّتائم وتحاولُ صفعَه.

كان الزَّواجُ منكَ غلطةَ عمري. ليتني لم ألِدْ منكَ بشرًا ولا حمارًا. كيفَ رضيتُ بكَ أيُّها العجوزُ القذِر. خدَّاعٌ كذَّابٌ أنتَ. قامرتَ بي حتَّى النِّهاية. دخلتُ السِّجنَ بسبَبكَ يا مُجرم. قاطعها قائلاً: لا لم تدخلي السِّجنَ من أجلي بل بسبب أفعالِك المشينة أيَّتها السافلة. اخرسْ أيُّها العجوزُ الخرِف. أنتَ الذي دسستَ المخدَّرات في حقيبتي. في حذائي. ووشيتَ بي للشُّرطة. لن أسامحكَ على شيء. ثلاث سنوات في السجنِ من أجلكَ يا زوجي العزيز. لا لا. لم تدخلي السِّجنَ بسببي. بل بسببكِ أنتِ. أنتِ التي حوَّلتِ شقَّتكِ الفاخرةَ في الإسكندريَّة إلى مبغى. أيَّتها الفقيرة المتَّسخة، أنا من جعلكِ امرأةً محترمة. أنا من أسكنكِ الشُّققَ الفخمة. أنا من رصَّعَ جيدكِ بالقلائد والجواهر. أنا من زرعَ الأسنانَ اللامعةَ في فمكِ يا صاحبةَ الفمِ المنخور.

بصَقَتْ في وجهه وصرختْ: أيُّها الكذَّابُ لن يصدِّقَك أحـــد. أيُّها المرابيُّ السَّمسار. أنتَ من اشتراني وباعني من أجل النُّقود. أنت لا تعبدُ إلاَّ إلهكَ الأخضر. الدُّولار.

احتشدَ النَّاسُ على الصُّراخ والعويل، وتدخَّل الجـــيران لفـــضِّ النِّزاع. وحينَ انتبه القبطانُ، الواقفُ على رجلٍ واحدةٍ لوجـــودي، صاحَ قائلاً: اشهدْ يا أستاذ. هذه المجنونةُ هي امرأتي. ناكرة الجميل. ثمَّ استدارَ إليَّ رافعًا القميصَ عن ظهره. انظرْ لم يبقَ مكانٌ لم تلوِّثْـــه سهامُ الغدر في ظهري. هذه الغادرة طعنتني مرَّاتٍ ومرَّاتٍ. وأنا بكلِّ بساطةٍ حمار. لأنَّني أحبُّها. أحبُّها يا أستاذ.

قاطعتْه قائلةً: أنت لا تحبُّ سوى جيبك. سوى بطنكِ المنـــتفخ كالبرميل. لا تحبُّ حتَّى نفسَك.أنت أنانيٌّ. قِنِّينةٌ مضـــغوطةٌ. أنـــتَ حذاءٌ مثقوب. هذا هو قَدْرُك.

وفي هذه اللحظة، هجمتْ على زوجها وهشَّمتْ خدَّه بأظفارهـــا مثل قطَّة خرجتْ عن طورها. فدفعتُها عنه فانصرفتْ وهي تبصِقُ عـــن يمينٍ وشمال، واستقلَّتْ سيَّارتها في حركةٍ طائشة. ثم تقدَّمتُ من القبطان وعانقتُه، وقبَّلتُ أثرَ الجراح في وجهه. فابتسمَ وهو يكفكفُ دموعه. ثم انتفضَ صارخًا: أيُّها النَّاسُ، أيُّها الجيرانُ، سامحونا.

وعندما انفضُّوا، وضعَ يدَه اليُسرى على فخذي وهمسَ لي بحبٍّ وحنانٍ: لا تحبَّ امرأةً يا أستاذ من كلِّ قلبك. تسحقكَ بحوافرها مثل الحصان. ولا تبالي. كنْ قويًا كي لا تخسرَ نفسَك وتخسرَ كلَّ شيء.

ثم سهرنا حتى السَّحور، نتبادلُ النُّكاتِ والأغنياتِ كأنَّ شيئًا لم يكن.

* * *

الخريف. نعم الخريف. ما أطيبَ أن تهيمَ في الشَّوارع وحيدًا. عكّازُكَ مظلّةٌ تقيكَ المطر. حينًا تفتحُها وحينًا تغلقُها. تشتهي أن تبلّلكَ الأمطار وأنت تطأ الأرصفةَ النَّاعمةَ برفق. تبحثُ عن عطرها في الزَّوايا المهجورة. وتطاردُ خيالَ فتاةٍ جامعيَّةٍ تحملُ كراريسَها ودفاترَها الأنيقة.

تقفُ وحيدًا عند المنعطف. تتأمَّل الواجهاتِ الزجاجيَّة، وتنتظِرُ صديقتك الوفيَّةَ الكآبةَ. تتأبَّطُ ذراعيكَ وتمضيان. معًا تهيمان. تحدِّقانِ في الأشياء الجامدة. لا تنبسانِ بشيء. الكآبة فتاةٌ لا تشيخ. وتجاعيدكَ شوارعُ أخرى يتنزَّه فيها الزَّمن.

الشَّوارِعُ ذاتها. والبناياتُ ذاتها. والمحلاَّتُ والواجهاتُ الزُّجاجيَّة. فأين اختفتْ حبيبتكَ الافتراضيَّة؟

يسكنكَ امرؤ القيس من رأسِك إلى قدميك. تقِفُ باكيًا بسقْطِ الرَّصيفِ بين التلِّ وعزمي فالمعرض فالميناء. عُنَيزتكَ سرقوا خِدرَها. مدينتكَ تُسبى. ومطيَّتك يرتمي بلحمها الغرباء.

تحملُ قنبلةً موقوتةً في رأسِك. اسمها الذاكرة. انفجري انفجري. فأنا العاشِقُ الأخيرُ في هذه المدينة.

تتابعُ الخطى حثيثًا. تعبرُ بوَّابةَ الميناء فالكورنيش. تشرب كأسًا من السَّحلب الشهيِّ السَّاخن. تملأ رئتيكَ بالهواء المالح في هذا اليوم الخريفيِّ. تصغي إلى نحيبِ الأمواج. تمعِنُ النَّظرَ بهدوء في القوارب المحطَّمة على الشَّاطئ. المقاهي فارغةٌ من العشَّاق. أنا العاشِقُ الأخيرُ في هذه المدينة. تذكَّرتُ القبطانَ التَّعيسَ الذي ينتظِرُ سفينته الرَّاسيةَ في زمنٍ آخر.

في يوم الجمعة تمتلئ شوارع المدينة بالصُّراخ. دعوتُ القبطانَ إلى الغداء في مطعم برج السَّمك. جلسنا في زاويةٍ مطلَّةٍ على البحر والأفق. قلت لم أعدْ أطيقُ السُّكنى في هذه المدينة. ولولا فسحةُ الميناء لمتُّ اختناقًا.

الميناء ما زالتْ عروسًا تتهادى بفستانها القُزَحيِّ وطرحتِها اللازوردية.

تبسَّم في وجهي قائلاً: أهنِّئكَ بدايةً بسلامة حفيدي. نسيبُكَ العائد من ألمانيا. تزوَّج بألمانيَّة وحصل على "الغرين كارت". إنه جَدْعٌ مثل جدِّه، ولفظ الجيم على طريقة المصريين. بعد فترةٍ يحصل على الجنسيَّة ويذهب إلى الخليج العربي. هناك يرفعون له القُبَّعة، ويتقاضى راتبًا كبيرًا إلى جانب الشَّقَّة والخادمة والسيَّارة. أنا على ثقةٍ في أنه سيتبوَّأ مركزًا عاليًا في إحدى الشَّركات.

قلتُ له إنِّي أتخيَّل الخليجيَّ ممسكًا بخرطوم النَّفط في يَدِه. لا يا أخي. لولا السَّعوديُّون والإماراتيُّون والقطريُّون والكويتيُّون والعُمانيُّون، لمات اللبنانيُّون والعرب جوعًا. لم أعلِّقْ، فأردفَ قائلاً: أتذكَّر في هذه اللحظات يا أستاذ جوامعَ اسطنبول. جامعُها سلطانُ الجوامع. اسطنبول أميرة البوسفور. تخرج وهي تجرُّ ذيلها المعطَّرَ ليلاً

والقمرُ لَمَّا يكتمِل. تخالُ فستانها أجنحةَ طاووس. ورذاذُ الموج يبلِّـــلُ قدميها ويصعدُ إلى عنقها. وهي مســـتلقيةٌ كسُـــلطانةٍ في برجهـــا. والجواري الجميلات يقِفنَ صفًا في استقبالها. والعشَّـــاق ينتظـــرون هبوبَ ردائها الحريريِّ المضمَّخ بالتوابل والعطور. سفُنُ الأمير ترسُو محمَّلةً بالهدايا والذَّهب والعبيد. كأنَّك هناك في ليلةٍ من ليالي شهريار أو ليالي البرامكة في بغداد.

كان القبطانُ يحلِّق مثل شاعرٍ على جناحَي خياله. ارتمى العشَّاقُ على قدمَي سلطانتي اسطنبول. حفاةً عراةً على باب مســـجدها. لم تأبَه لهم. أرسلَتْ نظرَها في الرِّجـــال وأشـــارتْ إليَّ. هلـــمَّ أنـــتَ يا صاحبَ السُّحنة السَّمراء. أيُّها الأشعثُ الأغبرُ. مدَّتْ يـــديها إليَّ. هلمَّ يا قرصاني. يا قبطاني. أفِضْ شهواتكَ الزرقـــاء علـــيَّ وعلـــى شطآني. اغفِرْ لهؤلاء الزناةِ ذنوبهم الصغيرة. في حضرة الحبِّ والجمال يتطهَّرون.

أغمضَ القبطان عينيه، فرأيتُ القمرَ العاشقَ على البوسفور يغمرُ مقلتيه النَّاعستين. ورأيتُ زبائن المطعم يهزُّون رؤوسَهم كالسُّكارى. ورأيتُ مياهَ البحر طافحةً بالدماء والزَّنابق. بالجمـــاجم والجـــواري. بالرَّاقصاتِ والنَّاسكات. وأقسمُ إنِّي سمعتُ شخيرَ صاحبنا يعلو مثل صفَّاراتِ الإنذار. وكادتِ الأسماكُ المشويَّة على المائدة تتحرَّك وتثبُ عائدةً إلى الماء. لولا أن فتحَ هذا الخنزيرُ الجميلُ عينيه، وتابعَ حديثه: نحن البحَّارة نصلِّي في الحانات لا في المساجد. الخمَّارات مســـاجدُنا والكوؤسُ محاريبنا... أنا لا أتكلَّم الآن بل يكلِّمكَ الرَّجلُ الذي كنتُه منذ ثلاثين عامًا. اغفِرْ جرأتي ووقاحتي. خُلِقَتِ الجوامعُ للخشـــوع والتَّأمُّل، لا للصُّراخ والعويل. حبَّذا لو نعودُ رعايا طيِّبين.

ثم جاء النَّادِلُ بالقهوة، وتركتُ القبطان شاردًا، كي لا أفسِدَ عليه نشوتَه الصُّوفيَّة في هذا اليوم المبارك.

* * *

اتَّصلَ بـــي بغتةً في السَّاعة التَّاسعة ليلاً.

- مساء الخير يا أستاذ
- مساء النُّور
- أنا وحيدٌ هنا والمطر يهطل
- وعندنا أيضًا
- جوٌّ ملائمٌ للحزن والموت. في ضـــيعتكم يخـــرج الجميـــع في الجنازة. سواءً أكان الميت غنيًا أم فقيرًا. المطـــرُ يبلِّـــل رؤوسهم ويبلِّل الجثَّةَ المستلقيةَ في الـــنَّعش. المطـــرُ عـــادةٌ مُستحبَّةٌ هناك.
- لو كنتُ ميتًا وهم يحملوني على أكتافهم لرفعتُ رأسي من تحتِ غطاء النَّعش، ومددتُ لهم لساني.
- لا تمزحْ يا أستاذ مع الموت. إن له وقعًا مهيبًا في الأسماع.
- إنه أيضًا عادةٌ مُستحبَّةٌ في قريتنا.
- هنا في المدينة، يشبه القبرُ شقَّةً مستأجَرة لبضـــعة أشـــهر. النُّزلاء يتردَّدون عليها باستمرار.

- لا تقلقْ. المطرُ يجعلنا ننبتُ من جديد. وقــد نتحــوَّل إلى أعشاب وأزهار.
- وربَّما إلى ديدانٍ نيئةٍ.
- نحنُ حِصَّةُ الدِّيدان.
- المهمُّ يا صديقي هو أن لا تفكِّرَ بالأمر. لأنَّكَ عندما تموتُ لن تشعرَ بشيء.
- تمامًا. وليس لدينا ذاكرةٌ تَعِي ما نصيرُ إليه. النِّسيانُ نعمــةٌ ورحمةٌ.
- أريدُ منكَ أن تنفِّذَ رغبةً لي تضطرمُ في داخلي.
- هل أرسِلُ إليكَ غيمةً أم سيفًا من البرق.
- لا لا. أريدكَ أن تزورَ قبرَ ابنتي. اذهَبْ وتأكَّدْ بنفسِــكَ إذا ما كانتْ سعيدةً في هذه الليلة الماطرة.
- الأمواتُ يا صديقي القبطان يحبُّونَ المطر. ولكن لماذا لا تأتي بنفسِك. إنَّ روحَكَ تستشعِرُ ما في روحهــا مــن فــرحٍ ونشوة.
- لو كنتُ طائرًا يا أستاذ لطِرْتُ ورفرفْتُ فوق قــبر ابــنتي. ولكنَّ أجنحتي متكسِّرة.

توقَّفتُ هنا عن الكلام، وشعرتُ بأنه أفحمني.

* * *

لم يمهلْه الرَّبيع كثيرًا لتوضيب حقيبة السَّفَر. و لم يُعطِــه القـــدرُ مهلةً إضافيَّةً لرواية مغامراته. في هذا الصَّباح حيث تهبُّ رائحة البحر مُحمَّلةً بأنفاس بحَّارةٍ رحلوا من قبل، وقصـــصٍ طوتْهـــا الأمـــواج، وآهاتِ غرقى انقلبتْ بهم مراكبُ الرَّحيل وغدرتهم الأنـــواء. شـــعَرَ القبطان بحاجةٍ خفيَّةٍ إلى المشي صوب الشَّاطئ القريـــب. وصـــل في السَّادسة صباحًا إلى النُّتوء الصخريِّ قُبالةَ الأفـــق الأزرق. لمعـــتْ في عينيه سفينةٌ بعيدةٌ تبحرُ بين القارَّات.

وشعْشعَتْ في باله المدنُ التي زارها وعاشرَها معاشرةَ القراصنة. لم ينظر إلى الخلفِ ليرى البناية الزرقاء التي تسكنها زوجته القديمـــة. و لم يلتفتْ يمنةً ليرى عاشقَين جميلَين يتنزَّهان على الكورنيش. فقـــط كان يرفع رأسه ليرى شيئًا يلمعُ في الأفق البعيد. سفينةً أو نجمًـــا أو برقًا ربيعيًا. ومن دون أدنى جَهدٍ أو تصميم، وضعَ قدمه الـــيمنى في الماء. فأحسَّ ببللٍ غادرَ جسدَه من زمنٍ بعيد. ثم وضعَ قدمه اليسرى فاختلجتْ روحُه عذوبةً. ثم تقدَّم رويدًا رويدًا مـــن دون أن يحـــرِّكَ ذراعيه، وتركَ الماءَ يغمره حتى السُّرَّة فالصَّدر فالعنق. ثمَّ غمـــر المـــاءُ

رأسه. لم يتنفَّسْ كما تتنفَّسِ الحيتانُ المذعورة، بل أغمضَ عينيه كموجةٍ مأخوذةٍ بنشوة المدِّ الربيعيِّ الوافرِ الأسرار.

غرِقَ القبطان و لم يحسَّ به أحدٌ من البشر. يُقال إن جارةً له كانت تبتَاع منه السَّجائر شعرتْ بزهرةٍ تسقطُ عن شرفتها.

أتى المساءُ و لم يعُدِ الرَّجلُ الغريبُ إلى متجره الصَّغير، ولا إلى الشَّقَّة التي تقطنُها زوجته المصريَّة في الحيِّ المقابل، ولا إلى باب الخيَّاطةِ العجوز التي ذاقتْ مُلُوحةَ أشواقه، و لم يضلَّ الطريقَ إلى بابِ صديق. فالأصدقاء رحلوا من قبل، الواحد تلو الآخر، وربَّما هو آخرهم.

وشاعَ الخبرُ في الشَّارع الذي تسكَّعَ عند إحدى زواياه متلبِّسًا شخصيَّة بائعٍ متواضع.

أدرك الجميع أنَّ الرَّجلَ اختفى. ولكنَّ بحَّارةً سُمرًا عائدون من سَفَر، أخبروا أهل الشَّارع أنَّهم شاهدوا جثَّةً قذفتْها الأمواجُ على صخرةٍ من صخورِ جزيرة أرواد. وعندما اقتربوا منها عَرفَه أحدُهم من خاتمٍ ذهبيٍّ في يده اليمنى، وخدشٍ صغير في وجنته اليُسرى. هتف قائلاً هذا هو مصطفى. كيف حملَتْه الأمواجُ إلى هنا. من ألقى به على هذه الصَّخرة المجهولة.

نظروا في أعين بعضهم، وقال أحدهم: كلُّ الطيور المهاجرة ستعودُ يومًا إلى أوطانها. وأدركوا مغزى كلامه. وطفرتْ دمعةٌ من عين طائر نورسٍ يحلِّق من فوقهم، لعلَّه يرثي رجلاً لم يَبْكِهِ أَحدٌ من الناس.

أرواد

حكاية القبطان مصطفى البطريق



محمود عثمان

▪ روائي من لبنان.

أبي من جزيرة أرواد وأمي من الميناء. شاءت الصُدَف أن يخطبَها من دون أن يراها. نساء ذاك الزَّمن منقَّبات. كان كافيًا أن تصِفَها امرأة له. سمراء مستديرة الوجه، واسعة العينين، ممشوقة القَدّ، سمينة السّاقين. عندما زفُوها إليه على متن البابور، وسط جماعة من النّساء المتشابهات، شدّتْ على يديه أثناء المصافحة ليعرفها. حملها أبي على متن الأمواج إلى جزيرته الصغيرة. بيوتها تشبه حفنة أرزّ، وأزقّتها ضيّقة كالعيون الصينيّة. جزيرة عريقة عاد إليها أبي السّندباد، وفي يده هديّة العمر.

لكنّ أمّي لم تلد. بالرّغم من مرور ثلاث سنوات على زواجها. قالتْ لأبي سرّحني بإحسان. فعادا إلى الميناء الطرابلسيّة ليتابعا حياتهما. استأجر جدي لأمّي لهما بيتًا مثل عشّ العصفور. يا للدّهشة، حبلتْ بي أمّي خلال شهر. إنّ هواء الميناء يثير اللقاح. أحسّتْ بالحياة تتحرّك داخلها. نطفة أمشاج من عَرَقٍ وشمسٍ وملحٍ وماء.

سمّتني على اسم سيّدنا المصطفى. فاصطفاني أبي لأصبح بحّارًا مثله. كان هو قبطان شراع. أمّا أنا فأصبحتُ قبطان سفينة.

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

دار الأمان
الرباط

ISBN: 978-614-02-1502-3
9 786140 215023